سفر نامه
رحلة ناصر خسرو القبادياني

تأليـف

أبى معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزى

ترجمة وتقديم

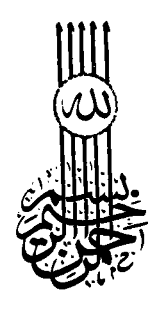
الدكتور أحمد خالد البدلي

أستاذ الأدب والحضارة الفارسية
بقسم اللغة العربية ـ كلية الآداب
جامعة الملك سعود

الناشر: عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الملك سعود
ص.ب ٢٢٤٨٠ ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية.

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) .

مطابع جامعة الملك سعود



المحتويات

صفحة



المقدمـة

حظي أعـلام الفـرس بنصيب جيـد من العنـايـة نلحظهـا في ثنـايا كتبنا التاريخية والجغرافية والمعجمية والأدبية العربية.

إلّا أن الباحث الجاد يشعر أن دور أولئك الأعلام الفرس كما هو في الواقع وحقيقة الأمر يظل غامضا تكتنفه كثير من الظلال، والسبب في ذلك الغموض هو أن آثـارهم ونشـاطـاتهم العلمية كتبت بلغتهم الفارسية، حتى أولئك الذين ألفوا منهم باللغة العربية تركوا كتبا باللغة الفارسية ربما فاقت ما كتبوه بالعربية لا جرم سموا بذوي اللسانين.

واللغة الفارسية لم تلق في جامعاتنا الاهتمام والعناية اللازمين، رغم ما بين اللغتين من الوشائج، والأثر والتأثير ما لا يوجد نظيره بين بعض اللغات المنحدرة من أرومة واحدة.

ولقد ناديت دائما بأن من واجب المهتمين بالدراسات التي تتناول الحضارة الإسـلاميـة المشـاركة في إبراز نشاط الأعراق المتعددة التي ساهمت في تكوين تلك الحضارة، فيبرز باحث دور الفرس، وآخر دور الهنود، وثالث دور الأتراك إلى آخر القائمة، التي تضم الأعراق التي شاركت في تكوين الحضارة الإسلامية من جهة

وعملت على نشرها من جهة ثانية. وإلّا ظل جزء لا يستهان به من تراثنا مخبأ تحت ألسنة هذه الأعراق، ولا مجال للاطلاع عليه إلّا لمن يقيّض له دراسة وتحصيل تلك اللغات وقليل ما هم.

وها أنا اليوم أقدم على ترجمة رحلة الجوّاب الفارسي ناصر خسرو القبادياني المسماة *بالسفرنامه* وقد ترجمتها من الفارسية إلى العربية ليطلع القاريء العربي على هذه الشخصية الفارسية المتعددة النشاطات.

وناصر خُسْرُو شخصية فذة حقا شغلت الناس وملأت أجواء القرن الخامس الهجرى شعرا وفلسفة وأثارت جدلا عقليا عميقا في منتديات ذلك القرن، وأنا أجهد في تقديمها كما هي لا كما صورها المادحون وتناولها القادحون.

ولقد استخلصت ترجمة ناصر خسرو من مؤلفاته، لأن خير ما يبرز أوجه نشاط الفنان هي منشآته، لأن كتب التراجم تتراوح بين القدح الفادح والمدح المسرف.

ومما يدعو إلى الاحتياط عند الرجوع إلى كتب التراجم العربية والفارسية هو أنها رغم ما تحويه من معلومات قيمة أحيانا إلّا أنها لا تعطي الباحث في كل حين شيئا ذا غناء يمكن الاعتماد والركون إليه. لا سيما إذا كان المترجَم له شخصية من وزن ناصر خسرو القبادياني الذي رفعه محبوه إلى درجة القديسين وانحدر به مبغضوه إلى درك الشياطين.

ولكي لا أكون متحاملا فيما ذهبت إليه من قصور كتب التراجم العربية والفارسية، دعنا نستعرض معا هذه الطائفة من الأقوال التي ذكرتها كتب التراجم عند حديثها عن قاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد الهمذاني (في الكتاب الذي ألفه عنه المرحوم الدكتور عبدالكريم عثمان) على سبيل المثال لا الحصر.

جاء في الفصل السادس من كتاب *قاضي القضاة عبدالجبار الهمذاني* تحت عنوان «آثاره ومؤلفاته» ما يلي:

«وقد أجمع من ترجم للقاضي كثرة تآليفه سواء في ذلك الخصوم والمؤيدون فقد وصفه الذهبي بأنه «صاحب التصانيف المشهورة» وقال عنه ابن شهبة: وله «المصنفات الكثيرة في طريقهم، أى المعتزلة وفي أصول الفقه، وذكر ابن شاكر الكتبي أنه «صاحب التصانيف المشهورة في الاعتزال وتفسير القرآن»، وأشار الكتبي إلى أن له «التصانيف السائرة والذكر الشائع بين الأصوليين»، ووصفه الحاكم أبو السعد بقوله «وليس تحضرني عبارة تحيط بقدره في العلم والفضل، فإنه هو الذي فتق علم الكلام ونشر بروده ووضع في الكتب الجليلة التي بلغت الشرق والغرب وصحتها من دقيق الكلام وجليله ما لا يتفق لأحد مثله، وطال عمره مواظبا على التدريس والإملاء، وطبق الأرض بكتبه وأصحابه وبعد صيته وعظم قدره، وإليه انتهت الرئاسة في المعتزلة حتى صار شيخها وعالمها غير مدافع، وصار الاعتماد على كتبه ورسائله، ونسخت كتب من تقدم من المشايخ»[١].

فإذا أراد الباحث الاعتماد على هذه الأقوال وتكوين فكرة عن عصر القاضي الهمذاني ومجتمعه، وكل ما هو ضروري في صياغة الترجمة لم يجد فرقا بين تلك الأقوال إلا في الإيجاز والإطناب والقصور والشمول.

هذا عن كتب التراجم العربية، أما كتب التراجم الفارسية فهي التيه بعينه، فكتاب، ككتاب *«لباب الألباب»* في تراجم شعراء الفرس، منذ أن بدأ الشعر الفارسي الإسلامي إلى القرن السابع الهجري لمؤلفه محمد العوفي لا يغني الباحث في الوصول إلى شيء ذي بال عن حياة الشعراء الفرس الذين ترجم لهم، رغم كونهم من رواد الشعر الفارسي الأوائل يقول المرحوم العلّامة محمد ابن

---

(١) المرحوم الدكتور عبدالكريم عثمان: *«قاضي القضاة عبدالجبار الهمذاني»* ص ٥٥، ٥٦ الدار العربية للطباعة.

عبدالوهاب القزويني[١]، ما ترجمته: «ومع أن *لباب الالباب* في ترجمة أحوال الشعراء فإنه لا يعطي غالبا معلومات مفيدة وخاصة سنة وفاة الشاعر التي تُعتبر من أهم المواضيع في تراجم الرجال، فإنه يهملها في أكثر الأوقات جهلا أو غفلة. وهمه الوحيد هو استعمال الاستعارات السمجة والتشبيهات البادرة والسجعات المتكلفة الثقيلة والجناسات المتصنعة المستكرهة التي لا يخرج القارىء منها بطائل، كما أن المنتخبات الشعرية التي يرويها للتدليل على شاعرية الشاعر هي من متوسط شعره، أو رديئه بحيث لا يمكن للباحث من خلال تلك النماذج أن يستخرج شيئا يركن إليه في الحكم على منهج الشاعر أو أسلوبه ومع ذلك فإن *لباب الألباب* يعد من الوجهة التاريخية والأدبية، ذو أهمية عظيمة جدا»[٢].

ومن سوء حظ الباحثين في الأدب الفارسي أن جمهرة كتب التراجم التي ألفت بعد *«اللباب»* مثل كتاب *«هفت اقليم»* لأمين أحمد الرازي، و*«رياض الشعراء»* لعلي قلي خان، و*«الخزانة العامرة»*، لغلام علي خان آزاد بلكرمي و *«منجاته»* لحسن بن لطف الله الطهراني و*«مجمع الفصحاء»* للمرحوم رضاقلي خان هدايت، تلك الكتب اعتمدت على «اللباب» فوقعت في كثير من أخطائه بدلا من تلافيها، وقس على ذلك بقية كتب التراجم الفارسية التي تناولت الكتّاب والعلماء والوزراء والأعيان ورجال الدولة.

لكل ما سبق فضلت الاعتماد على آثار ناصر خسرو القبادياني في جلاء حياته، واستكناه نشاطه العلمي، ولا أعني بذلك أني سأهمل كتب التراجم جملة، بل سيقل الاعتماد عليها وستكون الاستعانة بها في حدود الضرورة.

---

(١) المرحوم محمد بن عبدالوهاب القزويني (مقدمة محمد قزويني ـ مجلد أول) ص ١٥ كتاب *«لباب الألباب»* كتانجاته ابن سينار كتانجاته حاج علي علمي.

(٢) بحث تحقيقي دربارةٔ ناصر خسرو. الدكتور مهدى محقق، *مجلة كلية الآداب*، جامعة طهران. عدد ٩٤ لعام ١٩٧٥م.

وأود أن أشير إلى أني اعتمدت في هذه الدراسة على المؤلفين والمحققين الفرس المحدثين الذين جمعوا بين المنهجية العلمية والأدب القومي لأن كل أمة أعرف ـ على الغالب ـ بحالة علمائها، فقد قيل: «قتل أرضا عالمها».

حياة المترجم له

الرحّالة الفارسي ناصر بن خسرو بن حارث القبادياني أحد أشهر الرحالة المسلمين في القرن الخامس الهجرى (أوائل الحادي عشر الميلادي) ولقبه حميدالدين[1].

ولد في شهر ذي القعدة سنة ٣٩٤هـ في قباديان من نواحي بلخ، وتوفي سنة ٤٨١هـ، في وادي «يمكان» التابع لمدينة «بدخشان» الواقعة اليوم في أقصى شمال بلاد الأفغان عند حدود كشمير.

ينحدر ناصر خسرو من أسرة خراسانية نبيلة، وقد اشتهر بعض أفرادها بالجاه والثراء والنفوذ نعرف من أفرادها أبا الفتح عبدالجليل، وهو أخ لناصر خسرو ـ كان التقى به عندما عاد سنة ٤٤٣هـ، من رحلته العتيدة التي استمرت سبعة أعوام ـ وكان أبو الفتح هذا أحد أعيان بلخ ومن وجهاء الدولة السلجوقية، تولى منصبا إداريا مرموقا خلال وزارة عميد[2] الملك الكندرى وزير ألب أرسلان السلجوقي.

---

(١) يقول الشاعر دهقان على الطرنجي في «*لباب الألباب*» ج ١، ص ٣٩٢ في هجو ناصر خسرو:
نصر كافي جوناصر خسرو : كرد خودرا لقب حميد الدين
تعب آن برين حكونة سزد : كه كه آن به ازمحاسن اين

(٢) هو عميد الملك أبو نصر منصور بن محمد الكندري (ابن الأثير في مواضع متفرقة، ابن خلكان، ج ٢، ص ٧، *دمية القصر*، ص ١٤٠، *النجوم الزاهرة*، ج ٥، ص ٥.

وقد نشأ ناصر خسرو نشأة تليق بأبناء الأسر الفارسية العريقة، فحفظ القرآن في صباه وتعلم شيئا من الخطب والأشعار العربية، وكثيرا من نظائرها الفارسية.

فلا يكاد يصل إلى مرحلة الشباب حتى نراه في بلاط الغزنويين فهو يشير إشارة واضحة في رحلته إلى أنه رأى بلاط يمين الدولة محمود الغزنوي وابنه مسعود[1]. وكما نعلم فقد توفي السلطان محمد الغزنوي سنة ٤٢١هـ، عندما كان ناصر خسرو في حدود السابعة والعشرين من عمره.

وظل في الأعمال الديوانية في عهد الغزنويين، مسؤولا عن الشؤون المالية وربما كان هذا سبب إقامته الدائمة في مدينة بلخ العاصمة الشتوية للغزنويين[2].

وصل ناصر إلى أعلى المراكز الإدارية في آخر العهد الغزنوي وأوائل العهد السلجوقي، يستفاد ذلك من هذه الأبيات من ديوانه:

همان ناصرم كه خالي بنود زمن مجلس مير وصدر وزير
بنا مم نحواندي كس ازبس شرف أديبم لقب بودو فاضل ودبير

وبقي ناصر خسرو زمنا في الأعمال الديوانية، خادما أمينا للسلاجقة، وكان يتمتع بعقل جبار، وقريحة متوقدة، وفؤاد ذكي، وكان فوق كل ذلك يتمتع بهذا القلق الفكري الخالد الذي يتميز به هذا النفر من البشر الذين تهيئهم الأقدار لتحمل جسيمات الأمور. وكان هذا مفتاح شخصية خسرو القبادياني الذي نترجم له.

---

(١) لمزيد من التفصيل تراجع رحلته وبالذات حضوره مأدبة الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد بن علي.

(٢) *تاريخ أدبيات درايران*، للدكتور ذبيح الله صف، ج ٢ ص ٤٤٦، كتاب فروش ابن سينا.

فقد كان خلال عمله بالديوان السلجوقي يمارس هذا النوع من السلوك الذي يغلب على عمال الدواوين من لهو ولعب، وجرى وراء المال والجاه والنفوذ، ويرى هذه السعايات أو الوشايات والمكائد التي تزخر بلاطات السلاجقة، وموقف الخلافة العزيزة في بغداد من هذه التركمانية الوافدة من سهول آسيا، هذا الموقف الذي يتراوح بين مباركة بغداد لها إذا ما وقفت التركمانية سدا منيعا أمام أطماع الخوارزميين والفاطميين والبويهيين المحدقة ببغداد، وبين تأليب عليها تضريب بين آرائها - وكل طامع في الرياسة والمجد وخلع الخليفة وصلاته وتقريراته.

نقطة تحول في حياة ناصر خسرو

يلاحظ الباحث في تاريخ إيران الفكري في القرون الهجرية الثلاثة الرابع والخامس والسادس ظاهرة تكاد تكون أحد أبرز خصائص الاتجاه الفكرى فيه. وأعني بهذه الظاهرة هذا الحس القومي الفارسي المجروح. فما كاد الفرس يكونون لأنفسهم دولا مستقلة فارسية خالصة بدأت من الطاهريين والسامانيين والصفاريين وبدأ الشعور القومي الفارسي يزدهر في شعر الرووكي وملحمة الفردوسي حتى بوغت هذا الفكر - في تصور الفرس على الأقل - بنكسة طاعنة أدمت كبرياء القوم.

فتحول السلطان من آل سامان إلى الغزنويين لم تنظر إليه النخبة المفكرة من الفرس مجرد تحول سلطان من بيت إلى بيت، بل عدّوه خروجا للسلطان من الفرس إلى التركمانية. لذلك يجد الباحث في الفكر الفارسي في هذه القرون الثلاثة مبررا لتعالي أبي القاسم الفردوسي على يمين الدولة محمود الغزنوى، وتردده في توشيح *الشاهنامه* سجل مفاخر الفرس إلى سليل العبيد كما كان الفردوسي ينعت محمودا.

فتعليل حرمان الفردوسي من صلات محمود لأنه ذكر أهل البيت النبوى ببعض أبيات في المقدمة أمر يحتاج الى قدر عظيم من السذاجة كي يقبله الإنسان، فقد كان في بلاط محمود وابنه مسعود عدد هائل من الشيعة يتولون أعلى المناصب الإدارية.

لقد رأى مفكرو الفرس ملكا عظيما بناه قومهم ينهار، ورأو الغلمان والرقيق والمغامرين والخدم يتسلطون على الخلفاء في بغداد والملوك في إيران، ويرتكبون عظائم الآثام باسمهم، نعم لقد سخط مفكرو الفرس على دولة الخدم كما كان يدعوهم الشاعر العربي المتنبي بذلك، فلا نعجب من هذه الكثرة الكثيرة من مفكري الفرس الذين تناولوا هذا الانهيار القومي كل على طريقته فنرى الفردوسي والخيام وناصر خسرو وحسن الصباح كلهم يبكي على هذا المجد الضائع، وهذا الفرح الذي لم يتم.

فلقد ظل ناصر خسرو يتهافت على فتات ذلك الملك التركماني، ولكنه كان في أعماق أعماقه يرى نفسه أولى بخالصه ومحضه. لا جرم أن يستشعر قلبه بغض هذه الحياة التي تجرى فيها الأمور على غير ما يقتضيه العدل والإنصاف والحق.

والفكر الإنساني هيولي رهيب أشبه ما يكون بالنهر العارم المضطرم تحت أعماق الأرض القصية إن لم يجد مسارا طبيعيا، شق له مسارات متعرجات وهذا ما حدث لرحالتنا الفيلسوف.

فبعد أن تعب من الوصول إلى ما يسكن قلقه ويجيب على تساؤلاته الكثيرة التي يقول إنه توجه بها إلى عقلاء العرب والفرس والهنود والأتراك وأهل السند والروم واليهود، وتوسل إلى أصحاب الملل والنحل من فلاسفة وما نويين وصابئين ودهريين حيث يقول:

ازيـــارس وتـــازي وازهنـــد وازتـرك وزسنـدي ورومي زعـبري همه يكسر

وز فلسفي وما نوى وصابي ودهرى درخاستم اين حاجت پرسيدم بي مر يرسنده
همي رفتم ازين شهر بدان شهر: جونيده همي كشتم ازين بحر بدان بر
لم ييأس رحالتنا ولم يقل كما قال معاصره الخيّام[1]:

بذرت لديهـم بذور الحـكـم ووالـيـت أسـقـي ثراهـا بدم
فماذا جنـيـت من الـغـرس ذاك مجيء ماء... رواحـني نسـم

بل انتهى إلى اقتناع عقلي راسخ فحواه أنه لا بد أن يجد هذا المنقذ له من حيرتـه بين النـاس، وسـوف لا تخطئه عينه إذا حان وقت اللقاء، فسيكون متميزا عن الخلق، كما يمتاز البازعن جنس الطير، وكما يفضل البعير بقية البهائم، وكما تتسـامى النخلة عن بقيـة الشجـر، وكـما لا تخطىء العـين اليـاقـوتـة بين جنس الجواهر، وكما لا يلتبس الفرقان مع بقية الكتب، وكما تتقدس الكعبة بين المباني، متميزا. سيكون باختصار متميزا عن كل قرن.

وجـاءت اللحظـة الحاسمة، جاءه المنقذ من الضلال في هيئة رؤيا رآها في «جوزجانان» يحدثنا عنها في مقدمة رحلته قائلا:

«سـافـرت إلى «جـوزجـانان» ومكثت بها شهرا، لا أفارق معاقرة الخمر، ولا بأس من الاعتراف بذلك فقد قال رسول الله ﷺ: «قولوا الحق ولو على أنفسكم»، بينما أنا نائم ذات ليلة رأيت فيـما يرى النـائم شخصا يؤنبني قائلا: «إلام ستظل تشرب هذه الخمر التي تزيل عقول الرجال؟، الإقلاع عنها خير لك. فأجبته: «إن الحكماء لم يجدوا وسيلة تقلل من هموم الحيـاة خيرا من الخمـر». فقـال الطيف: «إن الغفلة والسكـر لا راحـة

---

(1) *رباعيات الخيام*: ترجمة إبراهيم العريفي، ص ٧٥، مطابع دار العلم للملايين، بيروت عام ١٩٦٦ (أول مارس).

فيهما، ولم يزعم الحكماء أن الغافل عن أمر نفسه يمكن أن يتولى قيادة الآخرين وإرشادهم. بل عليك أن تبحث عن وسيلة تزداد بها عقلا وحكمة، قلت أنى لي ذلك؟ فأجاب الطيف: «من يبحث يجد» وأشار إلى القبلة ولم يزد على ذلك شيئا وانصرف (والقبلة في تأويلات الإسماعيلية تعني الإمام الحق الواجب الاتباع).

فلما انتبهت من نومي كانت تلك الرؤيا تملأ كياني، وقد أثرت بي تأثيراً شديداً، فقلت لنفسي: «لقد صحوت يا ناصر من نوم البارحة، فجدير بك أن تنتبه من نوم الغفلة التي استغرقت حياتك كلها». وعرفت أني إذا لم أبدل كل أعمالي وأفعالي، وأولد من جديد فلا راحة لي. واتخذت قراري.

فاغتسلت وتوضأت واتجهت إلى المسجد الجامع، وصليت وسألت المولى تبارك وتعالى أن يمدني بالعون لأداء ما يجب علي نحوه. وأن يعينني على اجتناب ما نهى عنه».

هـذه الرحلـة

تعتبر رحلة ناصر خسرو القبادياني مصدرا من أهم مصادر دراسة التاريخ الإسلامي والجغرافيا التاريخية، فقد شملت جزءا مهما من النواحي الشرقية للخلافة العباسية، فهي تكاد تغطي الجزء الفارسي الذي كان تحت قبضة السلاجقة، وبقايا الغزنونين في شبه القارة الهندية، وكل المنطقة التي تعرف اليوم ببلاد الأفغان، كما شملت الرحلة آسيا الصغرى والشرق الأدنى وأطراف العراق الشمالية الشرقية، كما تناولت إفريقيا من شمالها في تونس حتى جنوبها الشرقي (مصر)، كما تحدثت الرحلة عن أهم أجزاء الجزيرة العربية في الحجاز ونجد وتناولت جانبا من اليمن.

والرحلة بهذا سجل خطير للعالم الإسلامي في فترة من أحرج فترات تاريخه الوسيط هي فترة التحول الخطير في التاريخ الإسلامي بل العالمي. فقد

كانت نذر عاصفـة الحـروب الصليبيـة تتجمع في الأفق الشمالي عند حوض البحر المتـوسـط لتكتسـح سواحل الشام بعد ثلاثة عقود من تسجيل هذه الرحلة . وكان يتصدى لهذا الخطر الأسود حكام الولايات الساحلية والداخلية بحماسهم الديني العظيم ولكن بإمكانياتهم المحدودة جدا .

بينما الخـلافـة العباسية في بغداد تعاني من الشيخوخة والتراخي والتفكك فهي منهكـة القـوى لكثـرة ما صدت من مؤامرات خارجية وتواطؤٍ داخلي ، ولولا حماس العنصر التركي المسلم الذي هبّ من الشرق الآسيوى لنجدة بغداد لتغير وجـه التـاريـخ الإسـلامي ، ولمـا انتظرت بغداد هجمة هولاكو الشرسة في القرن السابع الهجرى لتصبح الخلافة أثرا بعد عين . كما أن الفاطميين في مصر وبعض أجـزاء الشـام والجـزيـرة العـربيـة كانـوا يمـرون بفـترة عصيبـة بالغة الحساسية والتعقيد ، بسبب الخلافات الضارية بين المستنصر بالله الفاطمي الشيخ الضعيف ووزرائه المستبدين وأبنائه الذين لم يبلغوا الحلم بعد .

وهكذا نرى أن رحلة ناصر خسرو لم تكن مجرد تسجيل تاريخي للمدن التي زارها هذا الجوّاب الفارسي ـ ومع أن هذا الوصف التسجيلي كان الصفة المشتركة بين أغلب كتب الـرحـالـة والمؤرخـين في ذلـك العصـر ـ بل إن هذه الرحلة تهتم اهتماما بليغا بتفصيل التفصيل .

فرحالتنا يقف عند كل صغيرة وكبيرة ويتحدث عنها حديثا يتناول كل الجوانب .

فإذا حل بمـدينـة من المدن خلال رحلته التي استغرقت سبع سنين تحدث حديثـا مفصـلا عن أسـوارهـا والمادة التي بنيت منها وطول السور وعرضه وثخانته وعـدد أبـوابـه ، ونقاط القوة والضعف فيه ووضع المراقب والأعتدة الحربية ، ونوع

الاستعدادات العسكرية حول السور، كما يتحدث عن قصور المدينة وقنواتها ونظام الري والصرف فيها، والمسالك المفضية إليها والخارجة منها، والمسافة بينها وبين أقرب مدينة أو قرية أو جبل أو نهر أو غابة أو صحراء أو واد. فهو يذكر الجبال والوديان والمزارات المقدسة وغير المقدسة، وعقائد أهلها، والنحل ذات الغلبة فيها، وأنواع الأسواق والتجارات الرائجة فيها، ونوع البضاعة المصنوعة في المدينة والمجلوبة إليها وأصناف التجار والصناعات السائدة فيها. والموازين والمكاييل والمقاييس والنظام النقدي وطريقة جمع الخراج بها. بل كان هذا الجوّاب الفارسي يهتم بعدد طبقات المنازل في المدن وسعة الحجرات، وكم نفر يستطيعون أن يقيموا في الحجرة الواحدة، كما يهتم بالتقييم الاجتماعي للسكان والعروق التي يتكون منها جيش المدينة. ويدقق في السلالات البشرية في بعض المدن واللغات السائدة بها.

ولست في حاجة إلى الاعتراف بأن كل مترجم لأي أثر علمي تحكمه عاطفتان علمية ووطنية وأنا عندما فكرت في ترجمة هذه الرحلة الفذة من الفارسية إلى العربية (رغم وجود ترجمة عربية لها بقلم أستاذنا الدكتور يحيى الخشاب التي طبعت عام ١٩٤٥) كنت مدفوعا بهذين العاملين العلمي والوطني.

فحسب علمي وتتبعي فهذه هي أول ترجمة عربية مباشرة من الفارسية إلى العربية، أما ترجمة الخشاب فقد كانت من أصل فرنسي.

ودعاني إلى ترجمة هذه الرحلة ما امتازت به من بين الرحلات التي تلتها كرحلتي ابن جبير ٥٣٩ ـ ٦١٤هـ وابن بطوطة ٧٠٤ ـ ٧٧٩هـ وغيرهما، هو أنها تحدثت عن بعض أجزاء بلاد العرب بشكل جيد، ولولا إشارة هذا الرحالة لظلت المعلومات عن تلك المناطق ـ رغم قلتها ـ مشوشة مضطربة.

فحديث ناصر خسرو القبادياني عن مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف والأفلاج واليمامة والأحساء ذو قيمة تاريخية وحضارية كبيرة. تطلعنا على جانب بالغ الأهمية عن هذه الأجزاء من جزيرة العرب.

فقد رأى الرحّالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاري في قلب نجد ما لم يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين والمتحمسين، ولقد أزاح برحلته هذه الستار عن مهاد استقرار كثيرة في جزيرة العرب من الطائف إلى الأحساء مرورا بقلب نجد، بينما ظل المؤرخون المسلمون يوحون إلى القاريء من خلال تناولهم لهذا الجزء من الجزيرة بأنه جزء مغرق في التخلف ولا عهد له بأي درجة من الاستقرار المفضي إلى أي نوع من أنواع الحضارة.

ولقد ساعدت رحلة ناصر خسرو هذه على نفي هذا الادعاء المغرق في المبالغة فهو يقول: إنه رأى خارج أسوار اليمامة كل أنواع الصناع وألوان الصناعات، كما تحدث عن قنوات اليمامة العظيمة ونظام الري الفذّ فيها. كما تحدث عن قوافل التجارة التي كانت تقطع صحارى الجزيرة من البحرين إلى الأفلاج ثم اليمامة فالأحساء ففارس عبر (بحر العجم) صعودا إلى الهند والصين.

فلم تكن الصحراء العربية وسكانها في رأي كثير من الرحالة المسلمين تعيش وسط ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الداكنة فحسب بل كانت مصدر هذه الخرافات والأساطير، إلى أن كتبت هذه الرحلة لتثبت لنا العكس تماما.

الفاطميون في رحلة ناصر خسرو

حظيت الدولة الفاطمية بأكبر نصيب من عناية هذا الرحالة الفارسي، فقد دخل مصر في يوم الأحد السابع عشر من شهر صفر عام **٤٣٩**هـ.

وكانت الدعوة الفاطمية تمر بأحرج لحظاتها، كما كانت تعيش في صميم الفترة التي عرفت في التاريخ الفاطمي «بالمجنة المستنصريه» نسبة إلى أبي تميم معد بن الظاهر المستنصر بالله ثامن الخلفاء الفاطميين ولد سنة ٤٢٠هـ، وتوفي سنة ٤٨٧هـ.

وقد ولي المستنصر بالله الخلافة يوم الأحد ١٥ شعبان سنة ٤٢٧هـ وهو ابن سبع سنين، وهذا الخليفة الطفل كان ألعوبة في يد الوزراء أمثال أبي سعد سهل ابن هارون التستري، وفخر الملك صدقة بن يوسف الفلاحي وأبي محمد الحسن ابن عبدالرحمن اليازوري، وأبي القاسم علي بن حمد الجرجرائي.

ورحلة ناصر خسرو تلقى كثيرا من الضوء على الزوايا السياسية والاجتماعية والمذهبية في مصر الفاطمية، خاصة إذا علمنا أن الكتب التي تتناول هذه القضايا الهامة في العصر الفاطمي قلما يتاح لها الذيوع والانتشار لأن الدعوة الفاطمية تقوم أساسا على مذهب الستر.

ويكفي أن يقرأ الباحث المقدمات المسهبة التي كتبها المرحوم محمد كامل حسين في سلسلة كتب التراث الفاطمي التي قدر له أن ينشرها ليعرف قلة المعلومات التي عرفت فعلا عن حياة الدعوة والدعاة الفاطميين.

حقا إن ثمة بعضا من أبواب الدراسات الإسلامية المتعلقة بالتصوف والتشيع وما إلى ذلك من دراسة الملل والنحل والمذاهب الإسلامية المختلفة، لا فائدة من معالجتها إلّا إذا اعتمد الباحث اعتمادا كليا على المصادر الفارسية.

ورحلة ناصر خسرو من هذه الوجهة مرجع أساسي لمن يهتمون بهذا النوع من الدراسات الفاطمية.

وناصر خسرو عندما وصل إلى مصر لم يكن مجرد سائح عادي يرصد ما يرى ويروى ما يسمع بل كان فاطمي العقيدة والهوى. وقد تدرج في مراتب الدعوة حتى انتهى به الأمر إلى أن أصبح حجة خراسان «وهي من أعلى مراتب الدعوة الفاطمية لا تعلوها سوى درجة الإمامة».

وعقيدته الفاطمية هي التي حملته على تفصيل كل ما يتعلق بمصر الفاطمية، وإشادته بمصر في ظل الفاطميين، هذه الإشادة التي تصل أحيانا إلى درجة المبالغة المسترذلة.

وفي خلافة المستنصر بالله الفاطمي ظهر ثلاثة من كبار الدعاة الفاطميين الفرس هم على التوالي المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي داعي الدعاة في إقليم فارس عام ٤٤٨هـ، وناصر خسرو القبادياني داعي الدعاة في إقليم خراسان عام ٤٤٣هـ، وحسن الصباح صاحب المدرسة النزارية. وحسن هذا كان يعمل لحسابه الخاص مستغلا تدهور الأوضاع الفاطمية في مصر خلال الخلاف بين المستعلي ونزار ابني المستنصر بالله، وكل هؤلاء الثلاثة قدم إلى مصر وتلقى الدعوة الفاطمية وأصبح من كبار المتحمسين لها والداعين إليها والمدافعين عنها[١].

ولقد التقى ناصر خسرو بالمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي سنة ٤٣٩هـ وتلقى ناصر مبادىء الدعوة الفاطمية من المؤيد الشيرازي أثناء إقامته في مصر التي امتدت لست سنوات وربما قبل ذلك.

ولست أدري لم أجدني أميل إلى تفسير رؤيا ناصر خسرو التي تحدث عنها في أول رحلته على أنها لم تكن سوى التقائه بالمؤيد في إيران، وربما بأحد دعاة

---

(١) نصر الله فلسفي، جند *مقالة تاريخي وأدبي*، ص ٤١٧.

المؤيد الكثيرين الذين كان يبثهم في أنحاء إيران، حتى إنه استطاع أن يغرى حاكم فارس البويهي بالانضواء تحت لوائه الفاطمي[١].

وكان المؤيد في الدين الشيرازى هذا من كبار علماء الدعوة الفاطمية وفلاسفتها حتى إن أبا العلاء المعرى كان ينعته في المراسلات المتبادلة بينهما بالسيد الرئيس الأجلّ ويقول عنه: ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه»، ولقد كان التقاء ناصر خسرو بالمؤيد الشيرازى نقطة تحول حاسمة في حياته، فقد وجد في تعاليم المؤيد الفاطمية ما ظل يبحث عنه زمنا طويلا، وقد أشار إلى هذا التحول في قصائد كثيرة مبثوثة في ديوانه الشعرى الفارسي الكبير[٢]

بدايـــة محنـــه

لقد عاد ناصر خسرو القبادياني من رحلته الشاقة المضنية تلك وعندما وصل إلى البصرة في العشرين من شهر شعبان سنة ٤٤٣ هـ، كان قد وصل به الجهد والإرهاق والفقر والمسكنة أقصى حد ممكن يقول:

«كنت وأخي قد بلغنا من العرى والمسكنةَ والفاقة حدا جعلنا نبدو كالمجانين، وقد طالت لحانا وتلبدت الأقذار والأوحال على أجسادنا، ولا غرابة في ذلك، فإننا لم نغتسل منذ ثلاثة أشهر.

وعندما بعتُ الخرج الوحيد الذي كنت أحمل فيه كتبي بدريهمات قليلة وهممت بدفع تلك الدريهمات إلى الحمّامي في البصرة طردنا الحمّامي وقد ظن بنا الظنون فغادرنا باب الحمّام يجللنا الخزي. وأسرعنا نبحث عن ملجأ يقينا حدة البرد القارس، فرآنا بعض الصبيان فظنونا من المخابيل، وانطلقوا خلفنا يقذفوننا بالحصي، ويصيحون

---

(١) محمد كامل حسين (دكتور)، *سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة*، ص ٤٣.
(٢) *ديوان*، ص ص ١٧٤ ـ ٤٥٥.

علينا صيحات منكرة، وانتهى بنا المطاف أخي وأنا إلى زاوية بعيدة منعزلة خارج مدينة البصرة، وأخذنا نفكر فيما انتهى إليه أمرنا، ونعجب لأحوال هذه الدنيا».

نعم لقد كانت عودة ناصر خسرو القبادياني إلى إيران بعد رحلته الشاقة تلك بداية محنة ظلت تلاحقه إلى آخر حياته.

فقد أصبح داعي الدعاة الفاطميين في منطقة خراسان وكتب التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي طافحة بتفاصيل الخلافات بين الفاطميين ودعاتهم من ناحية وبين العباسيين وولاتهم من ناحية ثانية.

وحوصلة هذه الدراسة لا تتسع لإيراد تفاصيل تلك الخلافات المذهبية وربما تحدثت عن الدور الخطير الذي لعبه هذا الداعية الفاطمي ناصر خسرو القباديانى لو قيّض الله لي أن أبسط حياته العلمية في كتاب خاص يتناول جوانب شخصيته المتعددة الاتجاهات.

مؤلفات ناصر خسرو

خلف ناصر خسرو القبادياني مجموعة من المصنفات شملت كثيرا من الموضوعات العلميه التي كان يوليها كثيرا من الاهتمام ولكن أغلب تلك المؤلفات غالتها يد الزمن أو ظلت مجهولة لم يكشف النقاب عنها بعد، ومن حسن حظ الباحثين أن وصلت إليهم طائفة من كتبه الهامة، من ذلك هذه الرحلة المسماة *(السفرنامه)* وكتاب *(روشنائي نامه)* وهو من الشعر المثنوى، وقد حققه المستشرق الألماني هرمان أته: Hermann Ethe عام ١٨٧٩م، من ثلاث مخطوطات مختلفة وهي عبارة عن النسخة المحفوظة في مدينة كوتا Gotha بألمانيا، والنسخة المحفوظة بمكتبة ليدن Leyden والنسخة المحفوظة في مكتب الهند بلندن: India Office وبعد أن درس هذا المستشرق هذه المخطوطات الثلاث وقارن بينها وشرح

الاختلافات الموجودة بينها نشر نتيجة بحثه في مجلة «جمعية المستشرقين الألمانية» :

Zeitschrift Der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft

وقد نشر ذلك البحث القيم منجما في تلك المجلة الألمانية .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية تأسست في برلين جمعية الصداقة الإيرانية الألمانية وعملت على إحياء التراث الفارسي ونشره فاعتمدت على بحث المستشرق الألماني «أتـه» حول كتاب *«روشنائي نامه»* وطبعته في مطبعتها المعروفة بمطبعة «كاوياني» .

وكتاب *«روشنائي نامه»* من نوع المثنوى الفارسي والكتاب عبارة عن منظومة قصيرة تشتمل على ٥٩٢ بيتا من بحر الهزج ، وموضوعها الحكمة والوعظ والإرشاد وقد نظمها أثناء إقامته في «وادي يمكان» .

سعاد تنامه

ومن مؤلفات ناصر خسرو التي وصلت إلينا منظومته المعروفة *سعاد تنامه* أى كتاب السعادة . وقد تفضل المستشرق الفرنسي أدمان فاجنان Edman Fagnan . بتحقيق هذه المنظومة عام ١٨٧٩م . ونشرها في المجلة الآسيوية[١] ثم قام المستشرق الألماني «هرمان أتـه» بنشر ذلك التحقيق عينه في مجلة «جمعية المستشرقين الألمانية» .

وقد قامت مطبعة «كاوياني» ببرلين بنشر *السفرنامه* و*الروشنائي نامه* و *سعاد تنامه* في كتاب واحد هو الذي اعتمدت عليه في ترجمتي هذه .

---

(١) Journal Asistique, VII Serie, (13) NO. 1

و سعاد *تنامه* منظومة في ثلاثين بابا وهي كسابقتها *الروشنائي نامه* تدور حول الموعظة والنصيحة والتهذيب الأخلاقي ، والمنظومتان أقرب ما تكونان إلى النصائح التي يوجهها داعي الدعاة في المذهب الفاطمي إلى المستجيبين للدعوة . فهما بهذه المثابة من صميم نشاط ناصر خسرو المذهبي ، ومجموع أبيات *سعاد تنامه* مائتان وسبعة وثمانون بيتا من بحر الهزج .

زاد المسافرين

من مؤلفات ناصر خسرو المهمة كتاب «*زاد المسافرين*» ويعتبر من أمهات كتب علم الكلام في المذهب الإسماعيلي ، وقد ألف سنة **٤٥٣** هـ ، وقد عرض المؤلف في هذا الكتاب سبعا وعشرين رسالة في علم الكلام والفلسفة ، فتحدث عن الحواسّ والأجسام والنفس والهيولي والزمان والمكان وحدوث العالم وإثبات الصانع وخلق العالم وكيفية اتصال النفس بالجسم والميعاد والرد على مذهب التناسخ وإثبات الثواب والعقاب وقضية اللذة ، وغير ذلك من القضايا الرئيسية في علم الكلام والفلسفة . وكان خلال هذه الرسائل يفند آراء علماء الكلام والفلاسفة وخاصة محمد بن زكريا الرازي الذي شدّد عليه ناصر خسرو النكير وحمل على آرائه الفلسفية حملة شعواء .

وقد قام العالم الهندي محمد بذل الرحمن بتحقيق هذا الكتاب تحت إشراف المستشرق البريطاني «أدوارد براون[١] E.G.Browne ونشرته مطبعة كاوياني في برلين في شهر جمادى الآخرة سنة **١٣٤٢** هـ .

الديوان

من أبرز مؤلفات ناصر خسرو القبادياني التي كانت شائعة في حياته هما رحلته *السفرنامه* ، وديوان شعره الذي كان كثير من شعراء الفرس في القرن

---

(١) كتاب آدوارد برون المسمى : *A Literary History of Persia*

الخامس الهجرى وبعده يعرفونه بل ويحفظون طائفة كبيرة منه.

ويقول دولتشاه السمرقندي في كتابه *«تذكرة الشعراء»* إن ديوان شعر ناصر خسرو كان يشتمل على ثلاثين الف بيت من الشعر، ومهما يكن في هذا الادعاء من مبالغة إلا أنها مبالغة ذات دلالة على شاعرية ناصر خسرو، وقد كان يباهي بذلك كثيرا في أشعاره ويؤيده في ذلك كثير من معاصريه من الشعراء ومن جاء بعده.

ولعل أقدم نسخة من ديوانه هي تلك النسخة الناقصة المحفوظة في مكتبة «ديوان الهند» India Office بلندن تحت رقم ١٣٢ ضمن مجلد ضخم يشتمل على أشعار ستة من شعراء الفرس، وقد كتبت تلك النسخة سنة ٧١٤هـ أى بعد ٢٣٣ عاما من وفاة ناصر خسرو القبادياني (م ٤٨١).

ولقد اعتمد المستشرق الألماني «هرمان أته» على نسخة ديوان الهند، في تحقيقه لديوان ناصر خسرو، كما اعتمد على نسخة خطية أخرى محفوظة في مكتبة بودليان بأكسفورد في بريطانيا .

ولقد طبع ديوان ناصر خسرو عدة طبعات، الطبعة الأولى في مدينة «تبريز» سنة ١٢٨٠هـ، والثانية في طهران عام ١٣١٤هـ، وهي طبعة حجرية والثالثة هي طبعة «أته».

وأصح طبعة ظهرت حتى الآن من الديوان بشهادة الباحثين المحدثين من حيث التوثيق العلمي هي النسخة المطبوعة في مطبعة «كيلان» في إيران والتي حققها وصححها العلامة الإيراني المعاصر السيد آقاى حاجي سيد نصرالله تقوى والتي نشرت عام ١٩٦٠ الموافق شهر بور ١٣٣٩ من السنة الإيرانية.

وقد كتب الأستاذ الفاضل العلامة الإيراني أقاى تقي زاده، مقدمة ضافية على الديوان الذي نشره المحقق آقاى حاجي سيد نصرالله تقوى.

منهـج الترجمـة

اعتمدت في اختيارى لهذه الترجمة من *السفرنامه* على النسخة المطبوعة في مطبعة «كاوياني» ببرلين وهي كما أعلم أحدث وأدق طبعة ظهرت عن *السفرنامه* حتى الآن.

وقد طبعت *السفرنامه* أول ما طبعت في باريس سنة ١٢٩٨هـ، الموافق ١٨٨١م، على يد المستشرق الفرنسي «شارل شيفر» Charles Schefer وهو أحد أكبر المهتمين بالدراسات الشرقية، وكان مدير معهد الدراسات الشرقية في باريس، ولكنها طبعة فيها بعض الأخطاء والتحريف والتصحيف، وقد اعتمد شيفر على النسختين الخطيتين المحفوظتين في المكتبة الوطنية بباريس.

ثم طبعت *السفرنامه* في طهران سنة ١٣١٤هـ، ومع أن طبعة إيران كانت حجرية إلا أنها لم تكن سيئة، ولكنها اعتمدت على الطبعة الفرنسية اعتماداً كلياً ونقلتها نقلا فوقعت في نفس الأخطاء التي فيها بدلا من تلافي تلك الأخطاء، وتمتاز هذه الطبعة التي اعتمدت عليها في الترجمة على سابقتيها «أعني طبعة باريس وطهران»، بأنها أخذت خير ما فيهما، وانفرد محققها العلامة محمود غني زاده بالضبط والدقة، فقد دعّم هذه الطبعة بالتخريجات والموازنات لكل ما أوردته طبعتا باريس وطهران، وراجع جل ما تيسر له من كتب تاريخ الأدب الفارسي القديمة والحديثة التي تناولت مؤلفات ناصر خسرو بالدراسة والبحث، واستدرك على الطبعتين السابقتين كثيرا مما لم يتيسر لهما الحديث عنه، من ذلك مثلا أن هذه الطبعة التي بين يدي والتي كانت ملاك ترجمتي تشير إلى أن *السفرنامه* في أصلها ربما كانت أكبر حجما مما هي عليه الآن، وربما اختصرها

بعض الوراقين ويسوق الدليل على ذلك أنه جاء في مقدمة *الشاهنامه* للفردوسي المعروفة لدى الباحثين في الأدب الفارسي ـ بمقدمة بايسنقر ـ نقلا عن *السفرنامه* مايلي:

«يقول الحكيم ناصر خسرو في *السفرنامه*: «أنه في سنة أربع مائة وثمان وثلاثين من الهجرة وصلت إلى «طوس» ورأيت رباطا كبيرا شيد حديثا، فسألت الناس عمن بناه فقالوا «إن هذا الرباط بني من المال الذي أرسله السلطان محمود الغزنوى صلة للفردوسي، فلما استخبرت الناس عن الفردوسي قالوا إنه مات قبل وصول هذا المال، ورفض ورثته استلام المال، فأمر السلطان محمود الغزنوي ببناء هذا الرباط من ذلك المال. وجعله وقفا باسم الفردوسي» ويذكر المحقق العلامة محمود غني زاده أن هذا الكلام لا يوجد في النسخة التي طبعها».

ومن هنا يتضح لنا أن هذه الطبعة أكثر دقة وضبطا وتوثيقا ولذلك اعتمدت عليها وترجمتها إلى العربية.

كتاب «سفر نامه»
لناصر خسرو القبادياني



بدايـــة الرحلـــة

هذا ما يقـولـه أبـو معـين الـدين ناصـر خسرو القبادياني المروزي تاب الله عنه :
«كنت رجــلا من رجـــال الـــديـــوان ، وأحــد المسؤ ولـين عن الأمـوال والأعــمال السلطـانيـة ، وكنت أمارس الأعمال الديوانية حينا من الدهر، وقد اكتسبت شهرة بين أندادي من رجال الديوان السلجوقي .

وفي شهـر ربيـع الآخـر سنــة سبـع وثـلاثين وأربعمائة حينما كان أبو سليمان جغرى بيك داود بن ميكائيل بن سلجوق أميرا على خراسان، خرجت من سرو الشاهجهان كرسي الملك إلى قرية «بنج ديه» الواقعة في مرو الرود .

صادف ذلك اليوم يوم اقتران الرأس والمشتري ويزعمون أن كل من كانت له حاجة فهي جديرة بالتحقق في ذلك اليوم بمشيئة الله تعالى .

فآويت إلى زاويـة منعـزلـة وصليت ركعتـين وسألت الله تعالى أن يمنحني الغنى وعنـدمـا عدت إلى رفاقي وأصحابي ، وجدت أحدهم ينشد شعرا فارسيا فخطـرت ببـالي أبيـات من الشعـر وأردت أن أطلب من المنشـد قراءتهـا ، وعندما هممت بمناولة ذلك الصديق الوريقة التي كتبت فيها ذلك الشعر فوجئت بالرجل ينشد الشعر عينه ، فاستبشرت بذلك وعددته فألا حسنا ، وقلت في نفسي لا شك أن الله قد قبل صلاتي وحقق مرادي .

غادرت المكان وسافرت إلى «جوزجانان» ومكثت شهرا لا أفارق معاقرة الخمرة ولا بأس من الاعتراف بذلك فقد قال رسول الله ﷺ «قولوا الحق ولو على أنفسكم». بينما أنا نائم ذات ليلة رأيت فيما يرى النائم شخصا يؤنبني قائلا: إلى متى ستظل تشرب هذه الخمرة التي تزيل عقول الرجال؟ الإقلاع عنها خير لك. فأجبته أن الحكماء لم يجدوا وسيلة تقلل من هموم الحياة خيرا من الخمر. فقال الطيف: إن الغفلة والسكر لا راحة فيهما. ولم يزعم الحكماء أن الغافل عن أمر نفسه يمكن أن يتولى قيادة الآخرين وإرشادهم. بل عليك أن تبحث عن وسيلة أخرى تزداد بها عقلا وحكمة. قلت: أنى لي ذلك؟ قال الطيف: من يبحث يجد وأشار إلى القبلة. ولم يزد على ذلك شيئا وانصرف.

وعندما انتبهت من نومي كانت تلك الرؤيا تملأ كياني، وقد أثرت بي تأثيرا شديدا، فقلت لنفسي «لقد صحوت من نوم البارحة فجدير بك أن تصحو من نوم الغفلة التي استغرقت حياتك كلها» وعرفت أني إذا لم أبدّل كل أعمالي وأفعالي وأولد من جديد فلا راحة لي واتخذت قراري.

ففي يوم الخميس السادس من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وأربعمائة المصادف منتصف شهر «دي» الفارسي عام أربعمائة وعشرة، اغتسلت وتوضأت واتجهت إلى المسجد الجامع وصليت وسألت المولى تبارك وتعالى أن يمدني بالعون لأداء ما يجب على نحوه. وأن يعينني على اجتناب ما نهى عنه.

ثم غادرت جوزجانان إلى شبورغان ووصلت إلى قريت «بارياب» ليلا، وواصلت سيري من هناك عن طريق «سنكلان» وطالقان إلى مدينة «مرو الرود» ومن مرو الرود ذهبت إلى مرو الشاهجان وطلبت إعفائي من الأعمال الديوانية التي كنت أشغلها وأفهمت رؤسائي أني نويت الحج إلى بيت الله، وسددت الحسابات التي علي قبل الديوان، وتخلصت من أملاكي ولم أبق لنفسي إلا الضروري الذي لا بد منه.

وفي الثالث والعشرين من شهر شعبان من ذلك العام، خرجت من «مرو» قاصدا «نيسابور». وصلت إلى سرخس على بعد ثلاثين فرسخا من «مرو»، وبين «سرخس» ونيسابور أربعون فرسخا.

وصلت إلى «نيسابور» يوم السبت الحادى عشر من شهر شوال، وفي يوم الأربعاء آخر شهر شوال كسف القمر في «نيسابور»، وكان الحاكم يومذاك هو طغرل بيك محمد أخو جغرى بيك السلجوقي. وحينما كنت في نيسابور، أمر طغرل بيك محمد ببناء مدرسة قرب «سوق السرّاجين»، وقد شرع في بناء تلك المدرسة وأنا في المدينة وخرج طغرل بيك محمد للاستيلاء على أصفهان، وكانت تلك أول مرة يخرج فيها هذا الحاكم لغزو أصفهان.

وفي اليوم الثاني من شهر ذي القعدة خرجت من نيسابور في صحبة الخواجة موفّق النيسابورى الذي كان وزيرا للسلطان، وسلكنا طريق «كوان» إلى «قومس» حيث زرت مقام الشيخ با يزيد البسطامي قدس الله روحه.

وفي يوم الجمعة الثامن من شهر ذي القعدة غادرنا «قومس» إلى «الدامغان» وفي غرة شهر ذي الحجة سنة سبع وثلاثين وأربعمائه غادرت إلى «سلغان» عبر «آنجوري» و «جاشت خواران».

وأقمت في «سلغان» زمنا التقيت خلاله بطائفة من العلماء. وقد أشاروا على بالالتقاء برجل من العلماء يقال له الأستاذ على النسائي. وعندما ذهبت إلى حلقة درسه وجدته رجلا شابا يحاضر بالفارسية بلهجة أهل الديلم وشعر رأسه كثيف وحوله طائفة من طلبة العلم. وكان يلقي دروسا متعددة فبعض الطلاب يقرأ عليه «نظريات أقليدس» والبعض يدرس الطب، ومجموعة ثالثة تتطارح مسائل الحساب. وكان يقول خلال حديثه إنه قرأ على الأستاذ أبي على

ابن سينا رحمه الله أبواب كذا وكذا وناقشه في مسائل كيت وكيت، وسمع منه كذا وكذا، وكان يرمي من كل ذلك أن يفهمني أنه من خاصة تلاميذ أبي علي بن سينا، وعندما أخذت في مناقشته في بعض المواضيع قال إني مشتاق جدا لأن أقرأ عليك من الحساب، فعجبت لهذا الرجل المتعالم. كيف لا يعلم شيئا ويتصدى لتعليم الناس.

وغادرت بلخ إلى الرى والمسافة بينهما ثلاثمائة وخمسون فرسخا وفق حساباتي الخاصة ويقولون إن المسافة بين «الرى» و«ساوة» ثلاثون فرسخا، ومن «ساوة» إلى همدان ثلاثون فرسخا، ومن «الرى» إلى «أصفهان» خمسون فرسخا، ومن «الرى» إلى «آمل» ثلاثون فرسخا.

ويقع جبل «رماوند» بين مدينتي «الرى» و«آمل» وهو يشبه القبة الضخمة وتسمى قمته «لواسان». ويزعمون أن قمته حفرة عميقة يستخرجون منها مادة «النشادر» كما يوجد الكبريت أيضا في أعماق تلك الحفرة ومستخرجو النشادر يستعملون جلود البقر يملأونها بالنشادر ويدحرجونها من أعلى الجبل الى السفح حيث لا توجد وسيلة أخرى لاستغلال النشادر غير تلك الوسيلة.

في الخامس من محرم سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة من الهجرة الموافق العاشر من شهر مرداد سنة خمس عشرة وأربعمائة من التاريخ الفارسي يممت نحو مدينة «قزوين» ووصلت إلى قرية «قومة». قد أصاب الناس القحط في تلك القرية وبيعت كيلة الشعير بدرهمين. وفي التاسع من محرم تلك السنه وصلت إلى مدينة «قزوين» وهي مدينة عظيمة ذات جنات ناضرة وليس على تلك الحدائق أسوار أو أية حواجز تحول بين الإنسان وتلك الجنات. ووجدت قزوين مدينة عظيمة ولها سور حصين ذات شرفات ومراقب وأسواق المدينة نشيطة إلا أنه لا يوجد بالمدينة مياه كثيرة إلا ما يستقيه الناس من الآبار.

وحاكم المدينة رجل علوى، وأكثر الصنائع رواجا في قزوين هي صناعة الأحذية. وبعد يومين أي في الحادى عشر من محرم سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، غادرت قزوين عبر طريق «بيل» و«قبان»، والأخيرة ضاحية قزوين، ووصلت إلى قرية تدعى «خرزويل»، كان معي أخي وغلام هندي كان يرافقنا، ولم يكن معنا من الزاد ما يكفي ثلاثتنا، فذهب أخي إلى القرية ليمتار لنا شيئا من البقّال فرآنا رجل وقال: ماذا تريدون؟ أنا البقّال، فقلت له: هات أى شيء يصلح زادا للطريق فإنّا غرباء وعلى سفر. فقال البقال: ليس عندي أي شيء، فصرت بعد ذلك وخلال هذه الرحلات كلما رأيت شخصا تافها أطلقت عليه «بقال خرزويل».

وعندما غادرنا قرية «خرزويل» اعترضنا منحدر صعب، انحدرنا منه وعلى مسافة ثلاثة فراسخ وجدنا قرية يقال لها «برز الخير» من قرى طارم، شديدة الحرارة، وفيها أشجار كثيرة من الرمان والتين، وأكثر تلك الأشجار تنمو نموا طبيعيا دون حاجة إلى رعاية أحد، وخرجنا من تلك القرية فصادفنا نهرا يقال له «شاه رود» وعلى حافة النهر قرية تدعى «خندان» وكانت مركزا من مراكز جمع الضرائب لأمير الأمراء وهو أحد ملوك الديلم. وعندما يخرج هذا النهر من هذه القرية يلتقي بنهر آخر يسمى «سفيد رود» وعندما يلتقي النهران يكونان مجرى عظيما ينحدر إلى «كيلان» وينتهيان إلى بحر «آبسكون» الذي يصب فيه ألف وأربعمائة نهر. ويقولون إن هذا البحر يبعد مسافة ألف ومائتي فرسخ عن نهر «سفيد رود» وتوجد كثير من الجزر معمورة وسط بحر «آبسكون» وهذه حكاية سمعتها من الناس ولم أحققها بنفسي. ونعود الآن إلى متابعة رحلتنا.

المسافة من قرية «خندان» إلى «شميران» ثلاثة فراسخ، وهي صحراء مليئة بالأحجار. وشميران هي عاصمة ولاية طارم ويحيط بشميران قلعة عالية مبنية من الحجارة الصلدة. كما يحيط بالقلعة سور عظيم ذو ثلاث شعب، ويوجد

في وسط القلعة مجرى ماء عظيم حفر له طريق تحت القلعة إلى النهر حيث تظل ذخيرة الماء كافية. ويحرس القلعة ألف محارب أشداء من أبناء الأعيان في المدينة. وهؤلاء المحاربون رهائن في أيدي الحاكم حتى لا يفكر ذووهم في الطغيان والخروج على طاعة الحاكم. ويزعمون أن لهذا الحاكم قلاعا كثيرة في مختلف أنحاء الديلم على نفس النسق. والعدل والأمن يعمّان هذه الولاية حتى أن الإنسان لا يخشى الظلم والطغيان من جانب أحد، حتى أن الناس يذهبون إلى مسجد الجمعة ويدعون أحذيتهم في العراء خارج المسجد دون أن يخشوا سطوة اللصوص. وأمير هذه الولاية كما هو منقوش على النقود هو: مرزبان الديلم خيل جيلان أبو صالح مولى أمير المؤمنين واسمه «جستان إبراهيم».

ورأيت في شميران رجلا من دربند اسمه «أبو الفضل خليفة بن علي الفيلسوف» وكان رجلا ذا شهامة ومروءة، أكرمنا ورعانا وناقشته في بعض مسائل العلم، وانعقدت بيننا صداقة. فسألني ذات يوم: أين وجهتك؟ فأجبت الحج. فقال لي عندك حاجة: إن عدت من حجك المبرور فمرّ عليّ كي أراك مرة أخرى لنجدِّد أواصر الصداقة.

في السادس والعشرين من شهر محرم غادرت «شميران» ووصلت إلى مدينة سراب في السادس عشر من شهر صفر، وغادرت «سراب» عبر «سعيد آباد» ووصلنا إلى تبريز في العشرين من شهر صفر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، ومدينة تبريز هي عاصمة ولاية آذربيجان وهي مدينة عامرة. ولقد ذرعت مساحتها طولا وعرضا فوجدتها ألفاً وأربعمائة ذراع. وحاكم تلك الولاية كما يذكرونه في خطب الجمع هو: الأمير الأجل سيف الدولة، وشرف الملة أبو منصور وهسودان بن محمد مولى أمير المؤمنين.

قصّ علي بعضهم أنه حدث في هذه المدينة زلزال ليلة الخميس السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وأربعمائة بعد صلاة العشاء. وقد دمّر

الزلزال جانبا من المدينة، ولم تصب بقية الأماكن بأذى ويقولون إن أربعين ألفا من الناس قد هلكوا في ذلك الزلزال.



التقاء ناصر خسرو بالشاعر قطران التبريزي

ورأيت في تبريز شاعرا يدعى قطران، ينشد شعرا جيدا، ولكنه لا يجيد الفارسية وقد جاءني هذا الشاعر وأحضر ديواني «منجيك» و«الدقيقي» وقرأهما علي وكلما أشكل عليه معنى من المعاني فسرته له. وكلما صادف إشكالا سألني عنه، وكتب شرحه، كما قرأ عليّ أشعاره.

وفي الرابع عشر من شهر ربيع الأول خرجت من تبريز عبر مدينة «مرند»، وكان خروجنا في صحبة عسكر من جيش الأمير وهسودان وقد صحبنا العسكر إلى مدينة «خوى»، وفي خوى إلى مدينة «بركرى» رافقنا رسول خاص من قبل العسكر. والمسافة من خوى إلى «بركرى» ثلاثون فرسخا. ووصلنا «بركرى» في اليوم الثاني عشر من جمادى الأولى. واصلنا السير من «بركرى» إلى «وان ووسطان».

وفي سوق «وسطان» وجدتهم يبيعون لحوم الخنازير مع لحوم الغنم ويجلس الرجال والنساء في الأسواق العامة ويشربون الخمر معا دون تحفظ. ومن «وسطان» ذهبنا إلى مدينة أخلاط، وكان ذلك في الثامن عشر من شهر جمادى الأولى. ومدينة الأخلاط هي الحد الفاصل بين ديار الإسلام وديار الكفر. وتبعد مدينة الأخلاط عن بركرى تسعة عشر فرسخا.

وأمير البلاد هو نصر الدولة ويقولون إن عمره يربو على المائة عام. وله طائفة كبيرة من الأولاد وقد ولّي كل واحد على ولاية من الولايات التابعة له.

مدينة الأخلاط

ويتحدث الناس في مدينة «أخلاط» بثلاثة ألسن هي الفارسية والعربية والأرمنية. وأظن أن هذا هو سبب تسميتها بالأخلاط.

وتتم معاملات الناس هنا بالأوراق النقدية ورطلهم يزن ثلاثمائة درهم.

في العشرين من جمادى الأولى خرجت من «أخلاط» ووصلت إلى إحدى المحطات حيث كان الثلج كثيفا والبرد قارساً. وقد وضع الناس في الطريق إلى المحطة طريقاً خشبية ليستندوا عليها خلال سفرهم في الثلوج الكثيفة. ومن ذلك الرباط واصلت السير إلى مدينة «بطليس» وهي تقع في منحدر حاد، واشتريت من المدينة قربة من العسل تزن مائة رطل بدينار واحد. ويقولون إن في مدينة «بطليس» تاجرا يجمع في عام واحد أربعمائة قربة عسل كل قربة تزن مائة رطل وهو شيء كثير جدا. وعند خروجنا من «بطليس» مررنا بقلعة اسمها «قف انظر» ثم وصلنا إلى «الجليل» ورأيت هناك مسجدا زعموا أن أويس القرني قدس الله روحه هو الذي بناه. ورأيت في تلك النواحي مجموعة من الرجال يتجولون في الجبال ويعمدون إلى شجرة تشبه شجر السرو فيقطعونها، فسألتهم عن سبب ذلك؟ فأجابوا: إننا نحرق رأس هذه الأشجار من جانب فيسيل من الجانب الآخر مائع يسمى القطران، نجمعه في أواني ونبيعه في الأسواق.

وهذه الولايات التي تحدثنا عن بعضها منذ خروجنا من «الأخلاط» من توابع مقاطعة «ميافارقين».

غادرنا «جليل» إلى مدينة أرزن وهي مدينة عامرة طيبة الهواء كثيرة المياه وافرة الحدائق والبساتين مثمرة الأشجار، وأسواقها آية في النظافة. والفواكه فيها رخيصة جدا، فالمائتا رطل من العنب تباع بدينار واحد، ويسمون العنب «رزارمانوش».

ومن «أرزن» واصلنا الرحلة إلى مدينة «ميافارقين» ومن الأخلاط إلى «ميافارقين» ثمانية وعشرون فرسخا. ومن بلخ إلى «ميافارقين» من هذا الطريق الذي سلكته في رحلتي خمسمائة واثنان وخمسون فرسخا.

كان وصولنا إلى «ميافارقين» يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة. وكانت أوراق الأشجار ما زالت خضراء.

يحيط بالمدينة سور عظيم من الأحجار البيضاء ذات النتوءات البارزة ويزن كل حجر خمسين رطلا. وتحيط بالسور أبراج كبيرة للمراقبة. ويبدو السور العظيم رغم قدمه كأنما فرغ منه البناة لتوهم. يعلوه باب واحد فقط في الجهة الغربية وهو باب غاية في الكبر وأبواب المدخل من الحديد الخالص لا أثر للأخشاب في تركيبها.

وللمدينة مسجد جمعة يجل عن الوصف ولو أردت وصفه لاستغرق صفحات كتاب كامل ويقولون إن للمسجد ميضأة عظيمة يأتيها الماء من أربعين خزانا. وللبيوت في المدينة نظام فذّ للسقيا حيث يرد الماء إليها عن طريق قناة خاصة وتتخلص البيوت من الفضلات عن طريق قناة أخرى منفصلة.

وفي خارج سور المدينة توجد أماكن لراحة القادمين تتوافر فيها الأسواق والحمامات كما يوجد مسجد جامع تؤدَّى فيه الجمع والجماعات. كما يوجد في

الناحية الشمالية من المدينة سور آخر يسمى «المحدثة» وفي داخل هذا السور مدينة أخرى لها أسواقها ومسجدها الجامع وحماماتها وكل ما تحتاج إليه المدن.

وألقاب حاكم المدينة هي: الأمير الأعظم عزّ الإسلام سعد الدين نصر الدولة وشرف الملة أبو نصر أحمد(١).

وهو رجل في نحو المائة من العمر، ويقولون إنه ما زال على قيد الحياة. ورطلهم يزن أربعمائة وثمانية دراهم. وقد قام الأمير أبو نصر أحمد ببناء مدينة تبعد أربعة فراسخ عن «ميافارقين» سماها «النصرية».

خرجنا من مدينة «ميافارقين» متجهين إلى مدينة آمد والمسافة بينهما تسعة فراسخ.

ومدينة آمد تقع على مرتفع جبلي مساحتها طولا ألفا خطوة وكذلك عرضها، وهي بهذا الوصف مربعة، وقد أحاط بها سور عظيم ذو حجارة سوداء بشكل الآجر وهي في غاية الضخامة وقد ألصقت إلى بعضها بطريقة هندسية نادرة دون الاستعانة بطين أو رخام. وطول السور عشرون ذراعا وعرضه عشرة أذرع. وفي داخل المدينة وزعت سلالم كثيرة وضعت في أماكن استراتيجية يمكن الاستعانة بها في تسلق السور من الداخل للدفاع عن أى ثغرة يحاول العدو استغلالها خلال هجومه، وفي أعلى كل مرقب ميدان فسيح يتيح للمدافعين عن المدينة التحرك بحرية تامة، وللسور أربعة أبواب حديدية في الجهات الأربع باب

---

(١) هو نصر الدولة أحمد بن مروان صاحب «ميافارقين» و«دياربكر» تولى ملك هذه الديار سنة ٤٠٢هـ بعد أن قتل أخاه أبا سعيد منصور، وكان نصر عالي الهمة، قد حسن في عمارة الثغور وضبطها، كما كان مقبلا على اللغات والترف فاقتنى من الأواني والآلات ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار، وتوفى نصر الدولة سنة ٤٥٣هـ، ـ حاشية *السيرة المؤيديه* ص ١٠٨.

شرقي يسمى باب دجلة وباب غربي يسمى باب الروم وباب شمالي يسمى باب الأرمن، وباب جنوبي يسمى باب التل وخارج هذا السور سور آخر له ممرات تتيح للمحاربين الحركة وهم في كامل عدتهم. ولهذا السور الخارجي الذي يُعد بمثابة الخط الأول بوابات حديدية مخالفة في وضعها لأبواب السور الداخلي. وذلك حتى إذا ما استطاع العدو تخطي السور الأول فاجأه رجال السور الثاني وصدوه على أعقابه.

وفي وسط المدينة عين جارية تأتي من خلال حجارة رهيفة، وماؤ ها غاية في العذوبة، ولا يعلم أحد مصدر هذه العين. وفي المدينة أشجار وبساتين كثيرة تسقى من هذه العين السحرية.

وحاكم «آمد» ابن أبي النصر أحمد، سلطان «ميافارقين» السابق ذكره، ولقد أتيح لي خلال رحلاتي الكثيرة في أنحاء العالم في بلاد العرب والعجم والهنود والترك أن أرى كثيرا من المدن، إلا أني لم أمر بمدينة مثل «آمد» ولم يخبر ني أحد أنه رأى ما يعادلها.

والمسجد الجامع في المدينة أيضا مبنى من جنس الحجارة السوداء التي بني منها السور وهي حجارة في منتهى الإحكام والمتانة والقوة. وأعمدة الجامع تربو على المائتين وكلها من الحجارة وكل عمود قطعة واحدة. وسقف المسجد مزيَّن بنقوش خشبية منقورة ومدهونة في غاية الإتقان وقمة الأستاذية.

وتوجد في ساحة المسجد قطعة حجرية كبيرة جدا يعلوها حوض مدور بارتفاع قامة الرجل والحوض بروز هندسي رائع يخرج الماء من خلاله في شكل نافورة ساحرة، وهو ماء عذب جدا.

وبالقرب من المسجد الجامع توجد كنيسة عظيمة فرشت أرضها بنقوش جميلة وفي داخل الكنيسة وفي المكان الذي تقام عبادة النصارى رأيت بابا مشبكاً فيه من الوشي والنقوش الجميلة المتقنة ما لم أر له مثيلا قط.

هناك طريقان يربطان بين «آمد» وحوران، أحد الطريقين موحش وطوله أربعون فرسخا والآخر عامر ويمر خلال قرى يسكن أغلبها النصارى وطوله ستون فرسخا. وقد اخترنا الطريق الثاني وخرجنا مع قافلة وكان رهوا في أوله ولكن ما إن سرنا قليلا حتى صادفنا حجارة كثيرة جعلت سير البغال وئيدا، فلا تضع حوافرها إلا على الأحجار الدقاق التي تعوق تقدمها.

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة وصلنا إلى «حوران» وذلك يصادف من شهر آب من شهور الفرس. وكان طقس المدينة يوم ذاك يشبه طقس خراسان في أيام النيروز الفارسي.

من مدينة «حوران» ذهبنا إلى مدينة «قارول» وقابلنا رجلا كريما مضيافا واستضافنا في بيته، وعندما استقربنا المقام عنده، جاء أعرابي في الستين من عمره، وطلب مني أن أعلمه القرآن. فبدأت أعلمه سورة ـ الناس ـ وقلت له: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ. فقرأها وعندما قلت له: مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ. قال: أأقول أرأيت الناس أيضا؟ فقلت له: اقرأ كما ألقنك لا تزد عليه. ولكنه فاجأني سائلا: أخبرني عن آية نقالة الحطب في أية سورة هي؟ فعجبت أنه لا يدري أنها في سورة «تبت» وهي حمالة الحطب وليست نقالة الحطب. وقضيت جانبا من الليل محاولا تحفيظه سورة «الناس» دون جدوى، فعجبت لهذا الأعرابي العجوز.

أرض الشـــام

وفي يوم السبت الثاني من شهر رجب سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة وصلنا إلى مدينة «سروج» وفي اليوم الثاني عبرنا الفرات إلى مدينة «منبج» ومنبج أول مدن الشـام. ومـع دخولنا إلى منبج وافق اليوم الأول من شهر بهمن من شهور الفرس الشديدة البرودة إلا أن الطقس في المدينة كان منعشاً جداً.

ولا يوجد أثر للعمران خارج سور المدينة ومن منبج اتجهنا إلى حلب. ومن ميافارقين إلى حلب مائة فرسخ.

ومـدينـة حلب جميلة ذات سور عظيم، ارتفـاعـه خمس وعشرون ذراعا في الجـانب الـذي قستـه، ولحلب قلعـة عظيمـه مبنية من الحجارة، وهي أعظم من قلعة بلخ بمراتب وأبنية حلب ذات طوابق متعددة وكلها عامرة.

ومـدينـة حلب مركـز من مراكـز جمع الضـرائب في أرض الشام تجبي إليها أمـوال الـروم وديـار بكـر ومصـر والعـراق. ويأتي إليهـا التجـار من كل أطـراف الأرض. وللمدينة أربعة أبواب هي: باب اليهود، باب الله، باب الجنان، باب أنطاكية.

وموازين حلب هي الرطل الضاهرى ويزن أربعمائة وثمانين درهما. وإذا غادرت حلب واتجهت جنوبا وصلت الى مدينة حماة على بعد عشرين فرسخا. وبعد حماة «حمص» ومن حلب إلى دمشق خمسون فرسخا، ومن حلب إلى أنطاكية أحد عشر فرسخا، ونفس المسافة بين حلب وطرابلس، ويقولون إن المسافة من حلب إلى «القسطنطينية» مائتا فرسخ.

في الحادى عشر من شهر رجب سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة خرجنا من حلب ومررنا على قرية على بعد ثلاثة فراسخ عن حلب ويقال لها «جند قنسرين». وفي نفس اليوم وعلى بعد ستة فراسخ وصلنا إلى مدينة «سرمين» ولم أر سورا حول المدينة.

وبعد ستة فراسخ أخرى وصلنا إلى «معرة النعمان» وللمدينة سور حجرى والمدينة عامرة وعلى بوابة السور رأيت عمودا حجريا كتبت في أعلاه كتابة بلسان غير عربي، وسألت أحدهم عن معنى تلك الكتابة فقال: إنه طلسم لطرد العقارب وهو لا يسمح بوجود أي عقرب داخل المدينة، وإذا حضر من خارج المدينة وأطلق فيها يهرب بفضل ذلك الطلسم. وارتفاع ذلك العمود عشرة أذرع. وأسواق المدينة زاخرة بالبضائع ومسجد المدينة مبنى على تل مرتفع يصعد إليه الناس من كل جانب على درجات وعددها إحدى عشرة درجة.

وأغلب ما يزرع في المدينة الحنطة وهي كثيرة جدا. كما تكثر بها أشجار التين والزيتون والفستق والعنب ومياه المدينة في أغلبها مياه الآبار والأنهار.

فيلسوف المعرة

وفي المدينة رجل يقال له أبو العلاء المعرى وهو رجل كفيف وقد انتهت إليه رئاسة المدينة، وهو غني جدا، وله عبيد وعمال كثيرون يأتمرون بأمره وكل سكان

المدينة في خدمته ورهن إشارته، وقد اختار طريق الزهد فكان يلبس ملابس الصوفية الخشنة، وهو رهين منزله، ولا يزيد طعامه عن نصف رغيف من الشعير يتبلغ به، وذلك كل زاده.

ولقد سمعت أن بابه مفتوح دائما وله نواب ووكلاء يقومون بإدارة أمور المدينة ولا يرجعون إليه إلا في المهمات التي تتطلب تدخله وإبداء الرأى الأخير، ونعمته ميسورة لكل طارق وطالب مع أن أبا العلاء صائم الدهر قائم الليل ولا يشغله أمر من أمور الدنيا.

وهو رجل شاعر، ولقد وصل في الشعر والأدب درجة لا يدانيه فيها أحد، وقد اعترف له بذلك أفاضل الشام والمغرب والعراق، وأقروا أنه لا يوجد في عصره من يماثله أو يقرب من مرتبته.

ولقد ألف كتابا سماه «*الفصول والغايات*» وبث في ثناياه أحاديث غامضة وأمثالا بألفاظ فصيحة عجيبة، بحيث لا يستطيع الناس فهمه إلا قليل من أهل العلم أو الطلاب الذين يقرأونه عليه فيتولى الشرح والتفسير والبيان لهم. وقد اتهم أنه إنما ألف ذلك الكتاب ليعارض به القرآن.

ويجتمع في محاضراته ما لا يقل عن مائتي طالب علم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ليقرأوا عليه الأدب والشعر. وسمعت أن له أكثر من مائة ألف بيت من الشعر.

ولقد سئل أبو العلاء يوما: ما بالك وقد رزقك الله كل هذا المال والنعمة، لماذا تفرق هذا المال على الناس وتحرم نفسك من التمتع به، وتكتفي بأغلظ المأكولات؟ فأجاب: هذا الذي أطعمه يكفيني فلم أطلب الزيادة. وعندما

وصلت الى معرة النعمان كان هذا الرجل قيد الحياة (٤٣٨هـ).

في الخامس عشر من شهر رجب سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة خرجت من «المعرة» إلى مكان يدعى «كويمات» وذهبنا من «كويمات» إلى مدينة «حماة» وهي مدينة طيبة الهواء تقع على ساحل نهر العاصي. وسمى هذا النهر بالعاصي لأنه ينحدر إلى أرض الروم من أرض الشام، يعني أنه يخرج من بلاد الإسلام إلى الكفر ولذلك سمى «بالعاصي» وقد نصبت على حافات النهر دواليب كثيرة لتنظيم الرى والصرف.

ويتفرع الطريق من «حماة» الى فرعين: الأول يؤدي إلى ساحل البحر وهو الطريق الغربي. والثاني جنوبي ويوصل إلى «دمشق». أما أنا فسرت على الطريق الساحلي الغربي. مررت في طريقي على جبل ورأيت نبعا عذبا زعموا أنه يفيض في النصف من شهر شعبان كل عام، ويظل كذلك لمدة ثلاثة أيام ثم تنقطع مياهه ولا تعود إلا في نفس الموعد من العام القادم، ويؤم النبع خلق كثير للزيارة والتقرب إلى الله في قضاء حوائجهم. وقد بني على النبع رباط وأحواض للسقيا. وعند مغادرتنا النبع انحدرنا إلى سهل منبسط به ورود كثيرة، أغلبها النرجس. وقد تحول السهل إلى بساط ناصع البياض لكثرة النرجس به. وصلنا بعد ذلك إلى مدينة تدعى «عرقة» وعلى بعد فرسخ من عرقة وصلنا إلى ساحل البحر. وبعد خمسة فراسخ أخرى هبطنا في طرابلس. والمسافة من «حلب» إلى «طرابلس» خمسون فرسخا - ذكر المؤلف قبل حين أن المسافة بينهما اثنا عشر فرسخا - ولكنه يستدرك قائلا: إن المسافة من هذه الطريق التي سلكتها من «حلب» إلى «طرابلس» خمسون فرسخا.

وقد كان دخولنا إلى «طرابلس» يوم السبت الخامس من شعبان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة. وتحيط بطرابلس أنواع شتى من المزارع والبساتين والأشجار

ويكثـر فيهـا أشجـار قصب السكـر، والنارنج والأترنج والموز والليمون والنخيل. وعنـدمـا نزلت المـدينـة كانوا يجمعون عصارة قصب السكر. وقد بنيت المدينة في مواجهـة البحـر، فهي تواجـه البحر في جهات ثلاث حتى أن الموج يضرب أسوار المدينة في وقت المد. أما الجهة الرابعة فهي تواجه اليابسة ويقع فيها مدخل المدينة الـرئيسي وهي بوابـة حديـديـة ضخمـة محكمة البنيان تواجه المشرق ولها شرفات ومـراقب كثـيرة ترصـد أى تحركـات مشبوهة. والمدينة في خوف دائم من هجمات الـروم البحـريـة. وشوارع المدينة وأسواقها في غاية النظام والنظافة. ورأيت فيها بيـوتـا تتكـون من أربعـة أدوار وخمسـة وستـة أيضـا ويرى الغريب فيها كل أنواع الطعـام والفـواكـه والمشـروبـات، ورأيت فيهـا من أجنـاس الطعام والمشمومات والمرطبات ما لم أر مثله في أرض العجم، بل هي تفوق ما بأرض العجم مائة مرة.

ويقع مسجد الجمعة في قلب المدينة، وهو مسجد عظيم ومرتب وحصين، وفي وسط ساحة المسجد قبة عظيمة في داخلها حوض من المرمر وفي وسطه نافورة تخرج منها الماء وللحوض حلقات مموهة بالذهب.

ورأيت في سوق المـدينـة حوضـا ذا خمسـة مجار يخرج منها الماء الكثير شرابا للسابلة، وزعموا أن في المدينة عشرون ألف مسلح يقومون على حمايتها. ويتبع طرابلس كثـير من القـرى والرساتيق. ورأيت في طرابلس نوعا جديدا من الورق مثل الورق السمرقندي بل هو أجود.

وطرابلس من ممتلكات سلطان مصر. ولقد دخلت في حوزة سلطان مصر عنـدمـا هاجمهـا الـروم وأرسـل السلطان جندا استطاع أن يهزم الروم ويقهرهم، فأخـذ سلطـان مصـر خراج طرابلس ورتب فيهـا جندا مرابطين للدفاع عن ذلك الثغـر من هجـمات الروم. ولعسكر سلطان مصر قائد مقيم في طرابلس. والمدينة مركز هام من مراكز جمع الضرائب، حيث تتجه إلى الميناء سفن كثيرة من أطراف

الأرض من الروم والفرنجة الأندلس والمغرب وكلها تدفع العشر لسلطان مصر. ويدفع راتب الجند من تلك العشور. ولسلطان مصر عدد كبير من السفن المرابطة والتجارية التي تبحر إلى بلاد الروم، وصقلية والمغرب للتجارة. وكل سكان طرابلس من الشيعة. والشيعة معروفون باهتمامهم الشديد ببناء المساجد والإسراف في تزيينها. ورأيت في طرابلس منازل على هيئة الأربطة، ولكن لا يسكنها أحد إنما هي مشاهد لأئمتهم وصلحائهم. ولا أثر للعمارة خارج سور المدينة عدى مشهدين أو ثلاثة.

غادرنا طرابلس وسرنا والساحل متجهين جنوبا فوصلنا إلى قلعة تدعى «قلمون» يقولون إن في داخلها مياها كثيرة. واتجهنا إلى مدينة «جبيل» وهي مدينة مثلثة بحيث أن ضلعها الرابع يقع في داخل البحر ويحيط بالمدينة سور في غاية الارتفاع، وهو سور حصين جدا ويحيط بالمدينة نخل كثير وغيره من نباتات المناطق الحارة. ورأيت في المدينة طفلا يحمل مجموعة من الورد الأحمر والأبيض فدهشت لأن هذا الفصل يوافق في بلاد إيران اليوم الخامس من شهر «اسفندار مذ» وهو من الشهور الشديدة البرد هناك.

ومن الجبيل ذهبنا إلى مدينة بيروت، وفي بيروت رأينا إيوانا حجريا يتوسط الطريق، وارتفاع الإيوان خمسون ذراعا حسب تقديري، وعلى جوانب الإيوان صخور حجرية بيضاء، وتزن كل صخرة أكثر من ألف رطل.

وفي أعلى الإيوان أسطوانات رخامية، غاية في الضخامة، لا يستطيع رجلان أن يحيطا بدائرتها. وفي أعلى الأسطوانات أواوين أصغر حجما بنيت على نظام هندسي بديع وتماسكت أطرافها بشكل قوي دون حاجة إلى طين أو رخام يلحم بعضها ببعض. وللإيوان نقوش بديعة قل ما يرى الإنسان لها مثيلا. وسمعت أن هذا الإيوان جزء من مدينة عظيمة قديمة كانت تقوم في بيروت ولم

يبق إلا هذا الإيوان، وسألت الناس ما تلك المدينة وما قصتها؟ فسمعت أنها بقايا حديقة أحد الفراعنة، ولقد رأيت كثيرا من هذه الأعمدة المرمرية في مختلف أنحاء المدينة وهي أعمدة ذات أشكال هندسية، تتراوح بين المدور والمربع والمسدس والمثمن وكلها ذات نقوش، وغاية في الصلابة والمتانة حتى أن الحديد قلما يؤثر فيها. وعجبت لأني لم أر جبالا قريبة من المدينة يمكن أن تكون مصدر هذه الصخور المرمرية العجيبة. وعلمت أنه توجد في عدة أماكن متفرقة من أرض الشام ويربو عدد هذه الأعمدة على خمسين ألف عمود ولا يعلم أى إنسان من أين جلبت ولا متى.

وانطلقت من بيروت إلى مدينة «صيدا» وهي في جنوب بيروت على الساحل وأغلب زرعها قصب السكر، وللمدينة سور عظيم محكم البناء وله ثلاثة أبواب ومسجد الجمعة واسع آية في الجمال. لقد فرش المسجد بحصر منقوشة ورأيت أسواق المدينة على درجة عظيمة من النظام والنظافة، فظننت أن السوق جهز لاستقبال حاكم المدينة ولكني علمت أن هذه حال أسواقهم في كل حين. وحدائق المدينة أشبه بحدائق الملوك في تنفيذها وتنسيقها وحينما دخلنا المدينة كانت جميع حدائقها محملة بالثمار الناضجة.

على بعد خمسة فراسخ من مدينة «صيدا» تقع مدينة «صور» وهي على ساحل البحر وأكثر المدينة داخل في مياه البحر، وتدهن بيوت المدينة بالقير حتى تسلم من الصدأ ومساحتها ألف ذراع في ألف ذراع. ومبانيها تتكون من خمسة طوابق وستة طوابق يعلو بعضها بعضا وأسواق المدينة عامرة والبضائع فيها كثيرة وافرة رائجة. ومدينة صور مشهورة بالمال والغنى في جميع مدن الشام الساحلية وأغلب أهلها من الشيعة. وقاضي المدينة رجل سني يدعى «ابن آلي عقيل» رجل صالح ذو مال ووفرة. وقد أقام أهل المدينة مشهدا أمام مدخلها وزينوه بالأثاث الجميل والريش الثمين والسرج الذهبية والفضية. وتقع المدينة في مكان مرتفع

وتأتيها المياه من الجبال. وفي جبل صور واد إذا سلكته مشرقا وصلت إلى مدينة دمشق التي تبعد عن صور بثمانية عشر فرسخا.

غادرنا «صور» إلى «عكة» وهي تبعد عن «صور» بسبعة فراسخ ويكتبونها «عكا» بالألف الممدودة.

وتقع المدينة على تلال مرتفعة أرضها تعوّج في جانب وتستقيم في جانب آخر، ويتحاشى الناس اتخاذ البيوت في السفوح خوفا من هيجان مياه البحر التي تصل إلى حافة المنازل في أوقات المد.

ويقع مسجد الجمعة في وسط المدينة وهو أعلى عمارة في المدينة وأول ما يشاهد الداخل إليها هي منائر المسجد. وأساطين المسجد كلها من المرمر الخالص. ويقع قبر النبي صالح عليه السلام على يمين المحراب، والقبر خارج المسجد. وساحة المسجد مفروشة بالحجار الرقاق في بعض جوانبها والبعض الآخر تغطيه خضرة يانعة. ويزعمون أن آدم عليه السلام هو الذي زرع هذا الجانب من ساحة المسجد.

ومسحت المدينة فوجدت طولها ألفى ذراع وعرضها خمسمائة ذراع. وللمدينة سور في غاية الإحكام. وتقع واجهتا المدينة الغربية والجنوبية قبال البحر والميناء، في الجانب الجنوبي، ولكل مدن الساحل موانيء هي بمثابة الإسطبلات للمدن الأخرى ويمتد سور المدينة إلى داخل البحر.

وللسور في الجهة البحرية بوابة حديدية ضخمة تشدها سلاسل عملاقة مربوطة بطرفي السور، فإذا قدمت البواخر إلى الميناء شدّوا تلك السلاسل فانفتحت البوابة لتسمح للسفن بالعبور ثم تقفل ثانية، وبذلك يضمنون عدم دخول السفن المعادية إلى مياههم.

ورأيت بالقرب من البوابة الشرقية للمدينة وعلى يسار الخارج عين ينحدر إليها الإنسان إلى باطن الأرض على درجات وتسمى «عين البقر».

وإذا خرجت من المدينة واتجهت شرقا شاهدت جبلا امتلأت مغاراته بمشاهد يزعمون أنها لبعض الأنبياء عليهم السلام، ويقع الجبل بعيدا عن طريق السابلة، وقد زرت هذا الجبل مع شخص كان في طريقه إلى مدينة «الرملة» وقد قصدت تلك المشاهد للزيارة والتبرك بأولئك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد حذرني أهل المدينة من الذهاب لمشاهدة معالم المدينة، وقالوا إن الطريق غير آمنة، وأن اللصوص يتعرضون للغرباء بالنهب والسلب، وعملا بنصيحة أهل المدينة فقد تركت أمتعتي في مسجد «عكا» وخرجت من البوابة الشرقية في يوم السبت الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة. وأول معلم زرته كان قبر «عك» مؤسس المدينة، ويقال إنه كان من الصالحين ومن أعيان المدينة، ولما لم يكن معي دليل فقد استولت عليّ الحيرة، وبينما أنا كذلك إذ أكرمني الله تعالى بأن ساق إليّ رجلا أعجميا، وترافقنا وعلمت أنه من «آذربيجان» وشرعت في زيارة الأماكن مرة أخرى فهذا الرجل خبير بمعالم المدينة، وحمدت الله على هذا التوفيق، فصليت ركعتي شكر.

وصلنا إلى قرية تدعى «بروه» وبها قبرا سمعون وعيش عليهما السلام فزرناهما، ومن هناك اتجهت إلى قبر يدعى «دامون» ويزعمون أنه قبر النبي ذي الكفل عليه السلام. واتجهنا إلى قرية أخرى يقال لها «أعبلين» وبها قبر النبي هود عليه السلام، فزرت القبر ورأيت بجانب القبر حظيرة بها شجرة عجوز زعموا إليّ أنه قبر «عزير» النبي عليه السلام.

واتجهنا جنوبا فوصلنا إلى قرية تدعى «حظيرة» وفي الجانب الغربي من القرية رأينا واديا به عين ماء تنبع من وسط الصخر وقد بني بجانب العين مسجد صغير وبداخله حجرتان، لهما سقف وبوابة صغيرة لا يكاد يلجها الإنسان إلا بجهد شديد وهناك رأيت قبرين أحدهما لشعيب عليه السلام والآخر لابنته التي كانت تحب موسى عليه السلام، ويبذل أهل تلك القرية أقصى جهدهم لخدمة المسجد والقبرين، كما ذهبنا إلى قرية تدعى «أربل» وفي مشرق تلك القرية جبل وفي وسطه بناء صغير يحتوى على أربعة قبور يزعمون أنها قبور أبناء النبي يعقوب عليه السلام وهم إخوة يوسف عليه السلام.

وخرجت من تلك القرية فشاهدت تلا، وتحته غار قيل إنه قبر أم موسى عليه السلام في داخله فزرته.

وعند مغادرتي الغار رأيت واديا آخر يحف به نهر صغير، وعلمت أن مدينة طبريا تقع على حفافي هذا النهر. وطول النهر ستة فراسخ وعرضه ثلاثة فراسخ. وماء نهر طبرية شديد الحلاوة، وتقع طبرية غرب النهر، إلا أن جميع مياه الحمامات القذرة وفضلات السكان تراق في ذلك النهر الذي يشرب منه السكان، وسمعت أن أحد الأمراء الذين حكموا هذه المدينة أمر بسد جميع المجاري الآسنة التي تصب في النهر إلا أن ماء النهر تعفن ولم يعد صالحا للشرب، فأمر بفك المجاري وإطلاقها في النهر فعاد الماء طيبا سائغا لذة للشاربين ـ وهذا من العجائب.

ولمدينة «طبرية» سور عظيم يبدأ عند النهر ويلتف حول المدينة، أما الجانب الذي يقع فيه النهر فلا سور عليه وقد امتد البنيان إلى داخل النهر لأن قاع النهر كما بلغني حجرى يحتمل دعائم المنازل المقامة على النهر. وفي نهر طبريا أسماك كثيرة متعددة الألوان والطعوم.

ويقع مسجد الجمعة في قلب المدينة، وأمام باب المسجد عين جاريه شديدة الحرارة وقد بنوا عليها حماما لا يستطيع المرء الاغتسال بمائه، إلا إذا أضاف عليه ماء باردا. ويزعمون أن سليمان النبي عليه السلام هو الذي بنى ذلك الحمام وقد اغتسلت في ذلك الحمام.

وفي مدينة «طبريا» مسجد يقال له «الياسمين» وهو آية في النظافة. وفي وسط المسجد ساحة كبيرة ملئت بأحواض زرع فيها شجر الياسمين ولذلك سمى المسجد بمسجد «الياسمين»، وفي شرق المسجد رواق بداخله قبر النبي «يوشع ابن نون» عليه السلام وبجانب القبر توجد قبور سبعين نبيا من الأنبياء الذين قتلهم بنو إسرائيل لعنهم الله.

وفي جنوب المدينة نهر لوط. وماء هذا النهر أجاج. ويزعمون أن مدينة «لوط» كانت تقع على حافة نهر لوط، ولكن لم أر أثرا لمدينة هناك.

وسمعت أن في نهر لوط حيوان يشبه البقرة يصطاد من قاع النهر ويقطع قطعا صغيرة تباع في كل الولايات الشامية. وهو دواء ناجع للدود الذي يأكل أوراق النباتات. فإذا وضع الإنسان قطعا من هذا الحيوان المائي في أصل الشجر فإن حديقته تسلم من شر الآفات الزراعية والعهدة على الراوى.

ويزعمون أن العطارين أيضا يشترون هذا الدواء زاعمين أن آفة ما تتلف بعض الأدوية لا دواء لها إلا هذا الحيوان النهرى.

وتشتهر طبريا بنوع من السجاد الجميل المنسوج من الحصير، وتباع السجادة الواحدة بخمسة دنانير مغربية.

قبر الصحابي الجليل أبي هريرة (رضي الله عنه)

ويوجد في طبريا قبر الصحابي أبي هريرة في الجهة القبلية، ولكن لا يستطيع أحد زيارته لأن أهل المدينة من الشيعة، وإذا تجرأ إنسان وذهب لزيارة القبر فإنه يتعرض لأذى العامة والصبيان حيث يضايقونه ويرجمونه بالحجارة. لذلك لم أستطع زيارة قبر هذا الصحابي الجليل.

زرت قرية «كفر كنه» وفي الطرف الجنوبي لهذه القرية تل صغير وفي أعلاه صومعة جميلة ذات درج يؤدي إلى قبر في داخل الصومعة يقال إنه قبر يونس النبي عليه السلام. وفي باب الصومعة بئر ذات ماء عذب زلال. وبعد أن زرت هذا القبر عدت أدراجي إلى «عكا».

مكثت في عكا يوما آخر ثم غادرتها إلى «حيفا» والطريق من عكا إلى حيفا مليء برمال ناعمة، وهي من جنس تلك الرمال التي يستعملها الصاغة في إيران ويسمونها الرمال المكية.

وتقع «حيفا» على ساحل البحر أيضا، ويكثر في المدينة أشجار النخيل كما رأيت بها كثيرا من صناع السفن وتسمى السفن في «حيفا» (جودى) ووصلت إلى قرية تبعد فرسخا واحدا من حيفا تدعى (الكنيسة) ويتفرع من هذه القرية طريق يصل بين البحر والجبل في الجهة الشرقية ويسمى هذا الطريق بوادى التماسيح. وبعد أن سرنا مسيرة فرسخين وصلنا إلى طريق ساحلي قد امتلأ بعظام كثيرة لحيوانات بحرية واختلطت العظام بالتراب، وقد تحجر جانب من هذه العظام وتشكل بأشكال مختلفة. واصلنا السير فوصلنا إلى مدينة تدعى «قيسارية» والمسافة بينهما وبين عكا سبعة فراسخ.

وقيسارية مدينة ذات رونق وبهاء ومياه كثيرة ونخل ويكثر بها النارنج والأُترنج وكل أنواع الحمضيات. ولها سور عظيم محكم البنيان وله بوابة حديدية ضخمة وعيون الماء كثيرة تواجه الماء حيثما اتجه في المدينة.

ومسجد الجمعة آية في فن الهندسة المعمارية ويستطيع المصلون أن يتسلوا بمنظر البحر بعد الفراغ من الصلاة فالمسجد يطل على البحر العظيم.

ورأيت في قيسارية نوعا من الأزيار المرمرية الحمأ الصيني ولها فتحات جميلة وتسع مائة لتر.

وفي يوم السبت سلخ شعبان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة خرجت من قيسارية، وكنا طوال الطريق نسير على الرمال الناعمة تحف بنا أشجار التين والزيتون الكثيرة اليانعة تملأ السهل والجبل. وبعد عدة فراسخ وصلنا إلى مدينة «كفر سابا» وتسمى (كفر سلام) أيضا. ومن هنا إلى الرملة ثلاثة فراسخ والطريق أخضر يانع أينما نظر الإنسان.

وفي يوم الأحد غرة رمضان وصلنا إلى الرملة، ومن قيسارية إلى الرملة ثمانية فراسخ. والرملة مدينة واسعة شاسعة ذات سور عظيم من الأحجار والطين وهو سور عال وقوى وله بوابات حديدية محكمة. وتبعد المدينة عن ساحل البحر بثلاث فراسخ.

ومياه المدينة من الأمطار وفي كل بيت حوض تختزن فيه مياه الأمطار وتدخر. وتوجد في وسط مسجد الجمعة أحواض كبيرة يأخذ الناس منها الماء عندما تمتلىء من الأمطار. وقرأت في صفة مسجد المدينة أن زلزالا حل بها في الخامس عشر من شهر محرم سنة خمس وعشرين وأربعمائة، وكان زلزالا رهيبا، إلا أن أحدا لم يُصب بأذى في نفسه، قرأت هذا مسطورا في جدار المسجد.

وفي المدينة مرمر كثير ومتنوع وأغلب منازل القوم مزدانة بهذا المرمر الجميل ذى الألوان الأخاذة. ويقطعون الرخام بمناشير هتماء لا أسنان لها. كما يصنعون من الرمال الناعمة ألواحا يزينونها بأشكال هندسية جميلة تحمل إلى كل أنحاء المعمورة ويلونونها بألوان كثيرة خضراء وحمراء وسوداء وبيضاء وكل لون.

ورأيت في الرملة نوعا من التين لم أذق أطعم منه مذاقا في أى مكان. وهذه المدينة تسمى في الشام والمغرب فلسطين.

في الثالث من شهر رمضان غادرنا الرملة فوصلنا إلى قرية تدعى «خاتون». ومن هناك واصلنا السير إلى قرية أخرى يقال لها «قرية العنب» وطوال طريقنا كنا نرى شجرة السداب(١)، وهي كثيرة تملأ السهل والجبل وتنمو نموا طبيعيا.

وفي قرية العنب هذه رأينا عينا عذبة تنفجر من الصخور، وقد بني عندها إسطبل وبعض المنازل لراحة المسافرين. ومن هناك صعدنا في طريق ظننا أنه سيؤدى بنا إلى قمة جبل وعندما سرنا بعض السير رأينا أمامنا أرضا عظيمة منبسطة بعضها صخرى والبعض الآخر رملي. وفي أعلى الجبل شاهدنا مدينة «بيت المقدس» ومن طرابلس الى بيت المقدس ستة وخمسون فرسخا. ومن بلخ إلى بيت المقدس ثمانمائة وستة وسبعون فرسخا.

وفي الخامس من شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة وصلنا إلى بيت المقدس وهكذا نكون قد قضينا عاما كاملا بعيدا عن الوطن، وحيث أننا على سفر طوال هذا العام فإننا لم نذق طعم الراحة.

---

(١) السداب كغراب: شجرة برية يتخذ منها دواء ينفع في تخفيض حدة الباه عند الرجال ويسقط الأجنة من أرحام النساء. رك *برهان قاطع*، ج ١، ص ١١٠٨.

القدس الشريف

يطلق أهل الشام ومن حولهم على بيت المقدس «القدس» وإذا لم يستطع أحد سكان الشام أداء فريضة الحج إلى مكة حضر إلى بيت المقدس في موسم الحج، ووقف وقدم الأضاحي وتلك عاداتهم، ويربو عدد القادمين إلى بيت المقدس في موسم الحج على العشرين ألف شخص في بعض السنين، ويُحضر الناس معهم أبناءهم ويختنونهم هنا. كما يأتي إلى بيت المقدس خلق كثير من أرض الروم وبقية البقاع المسيحية. كما يؤم المكان الكثير من اليهود، ويزور المسيحيون كنائسهم واليهود أكناشهم.

وغالبية بيت المقدس وقراها كلها جبلية، وأهلها يباشرون الزراعة بكل أنواعها، وأشهر زراعاتهم الزيتون والتين، مع وجود كل أنواع الزراعات. وبيت المقدس مدينة ذات نعم وافرة ورخيصة، وفي المدينة عدد من التجار وكبار الملاك يملك بعضهم خمسين ألف رطل من زيت الزيتون يخزنونه في الآبار والأحواض يملأونها بهذا الزيت المقدس ويبيعونها إلى كل أطراف المعمورة. ويقال إنه لم يحدث بأرض الشام قحط قط.

ولقد سمعت من الثقاة أن النبي ﷺ رأى في المنام كأن أحد العظماء يسأله قائلا: «يا رسول الله أعنا على اكتساب العيش. فقال رسول الله ﷺ أنا كفيل

لكم بقمح الشام وزيته». والآن سأصف لكم بيت المقدس.

صفة بيت المقدس

مدينة القدس تقع في أعلى الجبل ولا مصدر للماء في المدينة سوى ما يختزن بعد هطول الأمطار، وتوجد في بعض القرى التابعة للقدس عيون ماء كثيرة. أما القدس نفسها فلا مصدر للماء بها سوى مياه الأمطار.

والقدس مدينة عظيمة جدا حينما زرتها، يقوم على حراستها عشرون ألف رجل وأسواق المدينة عظيمة، والمساكن عالية وتغطى أرض المدينة صفائح حجرية فرشت بها الأرض، وكلما وجد الناس جبلا أو تلا هدموه حتى يستطيعوا البناء عليه، ونظرا لأن القدس تقع فوق تل مرتفع، فإن مياه الأمطار لا تستقر في شوارع المدينة، وسرعان ما تنحدر إلى الدهاليز المعدة لاستقبالها وخزنها لتكون ذخيرة لسقيا المدينة.

ورأيت في القدس كثيرا من الصناع المهرة وقد اختص أهل كل صنعة بقسم خاص بهم.

ويقع المسجد الأقصى في الجانب الشرقي من المدينة والجزء الشرقي من السور متصل بالمسجد، وإذا خرجت من المسجد استقبلتك صحراء عظيمة شديدة الاستواء، ويقال لها الساهرة ويزعمون أنها أرض الحشر يوم القيامة وسيجمع الله الخلق هناك، ولهذا يأتي كثير من الناس إلى هذه الصحراء ويتفرغون للعبادة راجين أن يدركهم الموت فيها. فإذا جاء وعد الآخرة يكونون أول من يُبعث وأسأل الله تبارك وتعالى أن يظلنا في ظل عرشه في ذلك اليوم العظيم بعفوه آمين يارب العالمين.

ورأيت في حافة الساهرة مقبرة عظيمة وأماكن كثيرة جليلة يصلي فيها الناس ويرفعون أكفهم بالدعاء، راجين المولى قبول توبتهم وشمولهم برحمته وغفرانه اللهم تقبل حاجتنا واغفر ذنوبنا وسيئاتنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وبين المسجد وهذه الصحراء يوجد واد عظيم شديد الانحدار يشبه الخندق ورأيت في أسفل هذا الوادى بناء عظيما تعلوه قبة حجرية في غاية الضخامة لم أر في حياتي أعجب منها. ويزعمون أن ذلك البناء لأحد الفراعنة. ويسمون ذلك الوادى «وادى جهنم».

وسألت الناس قائلا: من سمى هذا الوادى بوادى جهنم؟ فأجابوا: أنه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عسكر جيش المسلمين على حافة هذا الوادى وعندما نظر الخليفة إلى ذلك الوادى المخيف، قال رضي الله عنه: إن هذا الوادى جهنم.

ويزعم العامة أن كل من وقف على هذا الوادى المخيف يسمع أصوات المعذبين في النار، ومع أني زرت المكان، ووقفت على حافة الوادى وأشبعت فضولي في التفرج عليه إلا أني لم أسمع أى صوت.

وإذا سار الإنسان نصف فرسخ نحو الجهة الجنوبية للقدس، وانحدر قابلته عين ماء تنبجس من الصخر وتسمى تلك العين «عين سلوان» وقد بنى الناس حولها منازل كثيرة، وهذه العين تسقي قرية قريبة منها.

ويزعمون أن من اغتسل من هذه العين فإنه يشفى من الأمراض المزمنة وقد رأيت كثيرا من مباني الوقف حول تلك العين.

ولبيت المقدس مستشفى كبير، وقد حبست عليه كثير من الوقوف، ويعالج فيه عدد كبير من المرضى وتصرف لهم الأدوية، ويشرف الأطباء عليهم، ورواتب الأطباء يصرف من ريوع الوقوف. ويقع ذلك المستشفى، وكذلك مسجد الجمعة على حافة وادى جهنم.

وإذا نظر المرء إلى الضلع التابع للمسجد الأقصى والمطل على وادى جهنم، وجد أن السور يرتفع بمقدار مائة أرش، وللسور في ذلك الجانب صخور ضخمة شديدة النتوء بينما بقية جدر المسجد الأخرى تمتاز بالاستقامة.

بنى المسجد الأقصى حول الصخرة العظيمة التي سيأتي الحديث عنها.

وتلك الصخرة التي يزعمون أن الله أمر موسى باتخاذها قبلة، وامتثل لأمر الله واتخذ من الصخرة قبلة يصلى إليها. ولم يعمر موسى عليه السلام طويلا بعد اتخاذه من الصخرة قبلة.

وفي عهد النبي سليمان عليه السلام أمر ببناء مسجد حول الصخرة، وجعلت الصخرة في وسط المسجد واتخذت الصخرة بمثابة المحراب للمصلين، وظل الأمر كذلك إلى عهد الرسول ﷺ، وكان النبي يتجه إلى الصخرة في صلواته حتى أمره الله تعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة زادها الله تشريفا وتعظيما.

أردت قياس المسجد الأقصى ولكني أرجأت القياس إلى أن أفرغ من وصف المسجد وذكر ما يشتمل عليه، ولعل في ذلك كل الخير فإني معني بدراسة وضع المسجد دراسة شاملة. وقد قضيت أياما كثيرة أجول في زوايا المسجد من الخارج والداخل، وخلال جولاتي المتعددة هذه قرأت في الجانب الشمالي

للمسجد وبالقرب من قبة النبي يعقوب عليه السلام وفي أعلى أحد الأبواب أن طول المسجد سبعمائة وأربعة أمتار وعرضه مائة وخمس وخمسين مترا بالمقياس الملكي الذي يسمونه في خراسان بالمقياس الشاهاني، وقد رأيت هذه المساحة وقرأتها على أحد الأبواب بالقرب من قبة النبي يعقوب عليه السلام في القدس.

وأرض المسجد مفروشة بالأحجار، وقد أُلصقت ببعضها البعض بمنتهى المتانة والإحكام.

ويقع المسجد في الجانب الشرقي من المدينة والسوق. بحيث أن المرء إذا خرج من السوق قاصدا المسجد فهو يتجه شرقا.

وباب المسجد عظيم وارتفاعه في حدود ثلاثين ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا ويتصل به بابان عن يمينه ويساره أقل منه مساحة وتكثر النقوش في الباب، وهي نقوش ذات ألوان متعددة. والألوان عبارة عن مجموعة من الآجر المتقن الصنعة يستوقف النظر.

باب داود

توجد في أعلى الباب قطعة من الحجر المنقوش يضمها إطار رائع ذو زخارف متعددة وفي وسط الإطار اسم سلطان مصر العظيم، وعندما تسقط أشعة الشمس على ذلك الإطار السحرى تنبعث منه أشعة تخلب الأنظار، وتخلب العقول. ويعلو ذلك الإطار السحرى قبة حجرية عظيمة تنبث حولها الزخارف والوشي والنمنمات الخضراء الدمشقية. واللون السائد هو الزخارف الذهبية، إنه السحر بعينه، ويسمى هذا الباب باب داود عليه السلام.

فإذا عبرت باب داود إلى الداخل رأيت على يمينك رواقين كبيرين لكل رواق تسعة وعشرون عمودا مرمريا. ويزين قواعد تلك الأعمدة مرمر ملون من

لون آخر يختلف عن لون الأعمدة الأبيض، ويمتد الرواقان طولا إلى قرب المقصورة الرئيسية في المسجد، وإذا عبرت الرواقين رأيت على يسارك رواقا ثالثا طويلا تحف به أربع وستون إيوانا تحمله أعمدة من الرخام الملون، ولهذا الرواق باب يسمى «باب السقر» والمسجد الأقصى يمتد طولا من الشمال إلى الجنوب حيث تقع المقصورة، وتقع القبلة في جنوب المسجد.

باب الأسباط

وفي الجانب الشمالي من المسجد يوجد بابان متلاصقان، مساحة كل منهما اثنا عشر ذراعا طولا، وسبعة أذرع عرضا. ويطلقون عليهما «باب الأسباط» باعتبارهما بابا واحدا.

باب الأبواب

وإذا عبرت باب الأسباط فأنت ما زلت في عرض المسجد وما زلت متجها شرقا قابلك باب آخر عظيم مكون من ثلاثة أبواب متلاصقة، ومساحة هذا الباب كمساحة سابقه، باب الأسباط، اثنا عشر ذراعا طولا وسبعة أذرع عرضا، وهو باب كثير الوشي والزخارف والتهاويل ويسمى باب الأبواب.

وسمى باب الأبواب لأنه مكون من ثلاثة أبواب متلاصقة بينما بقية الأبواب مزدوجة.

وبالقرب من باب الأبواب وفي الزاوية الشمالية يرى الإنسان رواقا ذا أبواب وله قبة عظيمة تحملها أعمدة تبدو قواعدها شبيهة بأرجل الفيلة، وتضيء القبة مشاعل كثيرة، وتسمى تلك القبة قبة النبي يعقوب عليه السلام ويزعمون أن يعقوبا كان يتعبد في هذا المكان.

يوجد في عرض المسجد الذى يمتد من الشرق إلى الغرب رواق وفوق الرواق باب يؤدى إلى خارج المسجد، وبجانب الباب خلوتان مخصصتان للصوفية يجتمعون فيها ويتفرغون للعبادة والخلوة. وفي داخل الخلوتين محاريب متعددة مليئة بالنقوش الملونة، وفي هاتين الخلوتين طوائف متعددة من مختلف الفرق الصوفية منقطعون للعبادة، ولا يدخلون إلى المسجد إلا في أيام الجمع حيث يؤدون الصلاة ثم يعودون إلى خلواتهم.

وفي ركن المسجد الشمالي رواق جميل تعلوه قبة، كتب عليها «هذا محراب زكريا النبي عليه السلام»، ويزعمون أن زكريا كان يتعبد في محراب تحت هذه القبة.

وبالقرب من الحائط الشرقي للمسجد قبة ضخمة آية في فن الهندسة، ومكونة من شرائح حجرية ضخمة، لا يقل ارتفاعها عن خمسين ذراعا وعرضها ثلاثون ذراعا وتحفها النقوش، ويحيط بالقبة عشرة أبواب، وللأبواب حلقات حديدية محكمة الصنعة ويقال إن النبي سليمان بن داود عليهما السلام بنى هذه القبة لأبيه داود.

وإذا تركت قبة داود عليه السلام خارجا واتجهت شرقا قابلت بوابتين تسمى الأولى وهي التي على اليمين باب الرحمة، والأخرى وتقع على الشمال تسمى باب التوبة.

ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى تاب على نبيه داود في هذا المكان فسمى باب التوبة. وبجانب الباب مسجد جميل، يبدو أنه كان في الماضي ممرا فحوّل إلى مسجد، وهو مزدان بالرياض الجميلة والقناديل الثمينة، ويقوم على خدمته عدد من النواب. ويؤم المسجد خلق كثير للصلاة والعبادة ويسألون الله التوبة

كما تاب على عبده ونبيه داود.

ويقولون إن النبي داود عليه السلام كان خارجا من ذلك الباب عندما بشّر بتوبة الله عليه، فمكث هناك ولم يتجاوز المكان واشتغل بالعبادة وشكر الله.

أما أنا ناصر خسرو فقد صليت في مقام التوبة هذا، وسألت الله سبحانه وتعالى التوفيق والطاعة وتبرأت من معصيته، وطلبت منه سعة الرزق والعصمة من المعاصي بحق محمد وآله الطاهرين.

وفي الجهة الشرقية من المسجد المجاور للسور توجد زاوية تنعطف إلى الجنوب، هي قبلة مسجد داود عليه السلام.

وفي الجانب الشمالي من مسجد داود مسجد صغير شبيه بالسرداب ينحدر إليه الإنسان بواسطة درجات كثيرة، ومساحة المسجد عشرون في خمسة عشر ذراعا. وله سقف حجري تحمله أعمدة مرمرية. وهناك رأيت مهد عيسى المسيح عليه السلام، والمهد قطعة حجرية، على شيء من السعة والناس تقصد ذلك المهد وتصلي عنده، وقد صليت أنا نفسي عند المهد.

وقد ثبّت المهد في الأرض حتى لا يتحرك، ويقولون إنه المهد الذى نام فيه عيسى في طفولته، وبالقرب من المهد يوجد محراب السيدة مريم عليها السلام في الجهة الشرقية من المسيجد، كما يوجد محراب زكريا عليه السلام وقد زين المسجد بالآيات القرآنية التي أنزلها الله في حق زكريا ومريم.

كما يوجد على محاريب ذلك المسيجد كتابات تحكي قصة ميلاد عيسى عليه السلام، وتزعم تلك القصص أن عيسى ولد في هذا المكان. ورأيت في

المسيجد حجرا عليه بصمتان لإصبعين كما لو أن شخصا تناول ذلك الحجر بإصبعيه، ويقولون إن مريم اعتمدت على ذلك الحجر خلال آلام الوضع. ويسمى هذا المسيجد «مهد عيسى» وفيه قناديل وإذا غادرت مهد عيسى في الزاوية الشرقية منه ترى مسجدا آخر آية في العمارة ومساحته ضعفا مهد المسيح ويسمونه المسجد الأقصى. ويقولون إنه المسجد الذى أسرى إليه النبي ﷺ ليلة الإسراء. ومن هناك صعد النبي عليه السلام، كما جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم، قال الله تعالى: «سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى... الآية». وحول هذا المسجد بنايات كثيرة للعبادة في غاية البذخ والأبهة، وبها أثاث نظيف، وعدد كبير من الخدم يقومون بالإشراف عليها.

وإذا انعطفت إلى الناحية الجنوبية منصرفا من الأقصى رأيت مساحة من الأرض مكشوفة لا يظللها شيء.

وإذا تركت الساحة ولجت المظلة العظيمة التي تقع المقصورة تحتها، وهي تظلل الجهتين الجنوبية والغربية، مساحة هذه المظلة أربعمائة وعشرون ذراعا طولا في مائة وخمسين ذراعا عرضا. وفي داخل المظلة مائتان وثمانون عمودا مرمريا. وقد امتلأت الأعمدة من أسفلها إلى أعلاها بنقوش متعددة الألوان والمسافة بين كل عمودين أذرعه وقد زينت الأرض في داخل المظلة بمرمر ملوّن أخاذ.

وتقع مقصورة بيت المقدس في منتصف الحائط الجنوبي وهي كبيرة جدا محمولة على ستة عشر عمودا. ويعلوها قبة عظيمة منقوشة باللون الأزرق، وقد فرشت أرض المقصورة بالبسط المغربية الثمينة وبها قناديل عظيمة ومصابيح كثيرة مبثوثة في كل الأطراف، تتدلى من السقف بسلاسل متينة.

والمحراب بالغ السعة واحتشدت فيه النقوش الجميلة المتقنة، ويحف بالمحراب عمودان مرمريان ملونان بلون القصدير وتعلو المحراب نقوش أخرى كثيرة. ورأيت محرابا آخر على يسار المحراب الرئيسي قيل إنه محراب معاوية، ومحرابا ثالثا على اليمين يسمى محراب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وسقف المسجد مما يلي المحراب مغلف بالخشب الثمين المزين بالنقوش. ويحف بالمقصورة خمسة عشر بابا كلها تؤدي إلى ساحة المسجد المكشوفة، وكل باب منها آية من آيات الفن المعماري.

ولقد رأيت من بين تلك الأبواب بابا متميزا يوقف النظر. وقد صرف في تصميمه جهد فني واضح، ولوّن بألوان ذهبية حالمة، ونقشت فراغاته بتحاريق سوداء ورأيت اسم الخليفة العباسي المأمون مكتوبا في أعلى الباب فعرفت سر تميزه.

يقولون إن المأمون بعث بهذه التحفة من بغداد، وأمر أن توضع في هذا المكان. وعندما تفتح جميع أبواب المقصورة المطلة على الساحة المكشوفة يغمر المقصوره ضوء عظيم، حتى ليظنها المرء ساحة مكشوفة لاسقف يعلوها.

أما عندما يكون الجو مطيرا أو عاصفا، وتقفل أبواب المقصورة المطلة على الساحة فإن الفتحات التي في أعلى المقصورة تتكفل بإرسال ضوء كاف إلى الداخل. تحف بالمظلة الخارجية من الجهات الأربع خلوات ومساكن يؤمها الناس من مختلف أنحاء الشام ويجاورون فيها كما هو الحال بالمسجد الحرام في مكة المكرمة شرفها الله تعالى.

وفي الجانب الخارجي للمظلة وعلى الجهة المطلة على وادى جهنم يوجد رواق له اثنان وأربعون مدخلا كلها مزينة بالمرمر المجزّع، وهو متصل بالرواق

الغربي الذى تحدثنا عنه آنفا.

وتوجد تحت بيت المقدس وفي الجهة الموازية للمظلة أحواض تحت الأرض تمسك مياه الأمطار وتمنعها من التسرب وهي أشبه بالآبار.

وميضأة المسجد تقع في حافة السور الجنوبي، حتى إذا أراد الإنسان الوضوء أو تجديد طهارته جاء إلى هنا. وقد وضعت الميضأة في هذا المكان حتى تمكن المصلين من إدراك الجماعة. إلا أن المسجد كبير جدا وإذا خرج منه الإنسان فقد تفوته صلاة الجماعة.

وسطح بيت المسجد مجيرّ حتى لا تتسرب مياه الأمطار خلال الشقوق وتصل الى المصلين.

ويوجد تحت بيت المسجد عدد كبير من الأحواض ومصائد المياه، وقد شُقَّت إليها الأنفاق في صميم الصخر لأن بيت المقدس كما ذكرنا مبنى في أعلى جبل. والغرض من مصائد المياه تلك هي أن تمنع تسرب مياه الأمطار وتبخرها أو تفرقها في شعاب الجبل. وهذا المخزون المائي كثيرا ما يفيض عن حاجة بيت المقدس، ويستفيد منه الناس للسقيا. فقد نظمت إسالة الماء من تلك المصائد تنظيما فريدا، فالمرء يرى الأحواض الحجرية المنصوبة في مختلف أنحاء المدينة والتي ينحدر إليها الماء الذى ترسله تلك المصائد، وهو ماء عذب نقي بعيد عن التلوث.

ولقد رأيت حوضا مائيا كبيرا على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة تنحدر إليه المياه من أعلى الجبل، فإذا تجمعت فيه المياه أُسيل إلى جامع المدينة.

وفي بيوت مدينة القدس يرى المرء أحواضا مهمتها تجميع مياه الأمطار، ثم تخزن تلك المياه في خزانات خاصة هي ذخيرة الناس طوال السنة، فلا مصدر للمياه هنا غير الأمطار. حتى الحمامات العامة في المدينة لها مصادر مياهها الخاصة بها.

والأحواض التي رأيتها في المسجد أحواض طبيعية لا دخل للإنسان فيها لأن حجارة الجبل صلبة شديدة الصلابة كفيلة بمنع المياه من التسرب، ويزعمون أن النبي سليمان عليه السلام هو الذى هيأ تلك الصخور على تلك الهيئة، وجعلها مصائد محكمة لا ينفذ الماء من خلالها. ومياه بيت المقدس من أعذب المياه التي شربتها خلال رحلتي. وإذا هطلت الأمطار يوما واحدا ظلت المياه تسيل من المزاريب عدة أيام. ولكن لا تذهب قطرة ماء واحدة هباء.

قلت إن مدينة بيت المقدس تقع في أعلى جبل، وأرض المدينة غير مستوية ترتفع في مكان وتنحدر في آخر. أما أرض المسجد فهي في غاية الاستواء، وجدار المسجد يساير طبيعة الأرض المتغيرة. فإذا ما وجد بالقرب من المسجد منحدر فإن جدار المسجد يتطاول، وإذا ما كان مرتفعا فإن جدار المسجد يتطامن.

وفي جهات المسجد المقابلة للمدينة والمحال السكنية المنحدرة أسست أبواب في أصل جبل المسجد نقبت نقبا في الحجارة الصلدة. وتلك الأبواب تقود إلى ساحة المسجد الخارجية، وأحد تلك الأبواب يسمى باب النبي ﷺ وهو باب يسامت القبلة ويقع جنوب المسجد.

وتبلغ سعة باب النبي عشرة أذرعٍ. أما الارتفاع فيختلف من مكان لآخر حسب طبيعة الأرض الجبلية التي نقِّب فيها، والممر الموصل من باب النبي إلى ساحة المسجد في غاية القوة والإحكام مما جعله يتحمل بناء ضخما يعلوه. والبناء

الذى يعلو الممر استخدم في بنائه صخور هائلة لا يصدق العقل أن في قدرة البشر نقلها ووضعها في ذلك المكان. ويقولون إن سليمان بن داود عليه السلام هو الذى بنى ذلك البناء.

ولقد عبر النبي ﷺ من ذلك الممر ليلة أُسرى به إلى السماء ودخل إلى المسجد الأقصى، ويقع الباب على الطريق المؤدى إلى مكة المكرمة.

ويوجد بالقرب من باب النبي وعلى الحائط صورة لشيء يشبه الجنّة منقوش على الحجر، يزعمون أن حمزه بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ جلس إلى جانب ذلك الجدار، وقد علّق جنته خلف ظهره فانطبعت في ذلك الجدار فذلك أثرها.

وعلى مدخل المسجد الموازى لهذا الممر يوجد باب ذو مصراعين ويبلغ ارتفاع سور المسجد القريب من هذا الباب خمسين ذراعا. والغرض من بناء هذا الباب في هذا المكان هو منع الناس المقيمين في هذه المحلة من الذهاب إلى الأماكن الأخرى من خلال الممر.

فإذا عبرت هذا الممر الذى يقع فيه باب النبي وجاوزت الساحة الخارجية للمسجد قابلتك صخرة عظيمة، متكئة على جدار السور يبلغ ارتفاعها خمسة عشر ذراعا وعرضها أربعة أذرع. وهي أكبر صخرة منفردة رأيتها في المسجد، فإن أكبر صخرة في المسجد رأيتها قبل ذلك لم تكن تزيد عن أربعة أو خمسة أذرع.

فإذا توسطت المسجد، ومازلت سائرا في عرضه رأيت بابا يقع في الجهة الشرقية ويسمى باب العين. فإذا خرجت منه قادك إلى عين سلوان، وبجانب العين باب آخر يقود إلى طريق تحت الأرض ويسمى باب الحطة، ويقولون إنه

الباب الذى أمر الله بني إسرائيل دخول المسجد من خلاله في قوله تعالى: «وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ». ويوجد باب ثالث يدعى باب السكينة، ويقع تحت ذلك الباب نفق فيه مسجد به محاريب متعددة، ولكن مدخل المسجد مقفل ولا يؤذن للناس بدخوله، ويزعمون أن تابوت السكينة الذى ذكره الله في القرآن كان يوجد داخل ذلك المسجد ولكن الملائكة حملته الى السماء. وجملة أبواب بيت المقدس التي وصفتها تسعة أبواب.

صفة المكان الذى في ساحة المسجد والصخرة التي كانت قبلة قبل ظهور الإسلام

يوجد في الساحة الخارجية للمسجد بناء ضخم، وسبب بنائه هو أن الصخرة الموجودة في الساحة الكبيرة، لم يستطيعوا تغطيتها بغطاء مناسب، فعمدوا إلى هذا البناء وعدّوه بمثابة مقام يصعدون عليه لمباشرة بناء الغطاء المطلوب للصخرة. ومساحة هذا المقام ثلاثمائة وثلاثون ذراعا في ثلاثمائة ذراع وسطحه متوفر ومزين بالمرمر، وكذلك حوائطه فقد ثبتت بقطع من القصدير، وأداروا على جوانبه الأربعة حجارة رخامية تحصر المقام في شبه حظيره.

وصمموا المقام بطريقة جعلته الطريق الوحيد المؤدى إلى الصخرة، فإذا صعد الإنسان إلى سطح المقام استطاع أن يشرف على سطح المسجد، وبنوا في أسفل المقام تحت الأرض أحواضا تمسك مياه الأمطار، ويستفاد منها للشرب، وهذا الماء من أحلى المياه التي في المسجد وأنقاها.

وفي كل زاوية من زوايا المقام الأربع قبة، وأكبر تلك القباب هي قبة الصخرة التي كانت قبلة قبل أن يؤمر النبي ﷺ بالتحول إلى مكة.

قبـــة الصخـــرة

المسجد الأقصى مبنى بحيث أن المقام في قلب الساحة، وقبة الصخرة في وسط المقام.

والقبـة بنـاء مثمَّن الأضـلاع مساحة كل ضلع ثلاثة وثلاثون أرشا، وللقبة أربعـة أبـواب، يواجـه كل باب منهـا جهـة من الجهات الجغرافية الأربع، فباب شرقي، وباب غربي وباب شمالي وباب جنوبي، وبين كل بابين ضلع.

ويحيط بجدر القبة خوائط حجرية، وتبعد الصخرة عن الجدر بمساحة مائة شبر وليس للصخـرة شكـل هندسي معين، فهي ليست مستديرة ولا مربعة، بل شكل متناسب الأجزاء كأنها صخرة من هذه الصخور الكثيرة التي يشاهدها المرء ملقاة في الجبال.

ويحيـط بالصخـرة من جهـاتهـا الأربع أساطين مربعة الشكل ترتفع محاذية لجدار القبـة، ويـربـط بين كل عمـودين طائفـة من الأسـاطـين المرمرية في أعلى الأعمـدة ويعلو تلك الأعمـدة غطـاء حجـرى شبيـه بالقبة وتستقر الصخرة تحت ذلـك الغطـاء المقبب. وارتفـاع هذا الغطـاء نحـوا من مائـة وعشرين أرشا، فإذا شاهـده المـرء من بعيـد ظن أنـه إنـما ينظـر إلى قمة جبل شاهق، وقد زين سطح وسقف هذه القبـة التي تقبـع الصخـرة تحتها نقوش خشبية محفورة وبارزة غاية في الجمال تستوقف النظر.

والصخرة في حد ذاتها ليست جرما كبيرا، ولا تزيد على طول رجل طويل إلا بقليـل. وقـد غلقت بحظـيرة رخـاميـة حتى تظـل في مأمن من أن تلمسهـا الأيـدى. ولـون الصخرة أزرق ولم تطأها قدم بشر منذ وقت لا تعيه ذاكرة التاريخ إلا أن الإنسان يرى في الجانب الموازى للقبلة من الصخرة أثر قدم زعموا أن النبي

إبــراهيم عليـه السـلام وقف على الصخـرة في زمـان كانت فيـه الصخـور لينـة فانطبعت قدمـه الشـريفـة على الصخرة. كما يزعم البعض أن ذلك الأثر أثر قدم إسحق عليه السلام، فقد كانت الصخرة من ملاعب طفولته.

ويرى المرء حول قبة الصخرة أعدادا كبيرة من المجاورين والعابدين. وقد زين داخــل قبـة الصخرة بالفرش الثمينة الحريرية وغيرها من أجود أنواع الفرش ويعلو الصخرة قنديل فضي معلق ينحدر من سلاسل فضية تزيده اشتعالا وتلقى على القبة مزيدا من الهيبة والجلال.

وتنتشر القناديل الفضية في فضاء القبة، ويحمل كل قنديل اسم واهبه لهذا المقام القـدسي، وقـد رأيت من بين تلك القنـاديـل قنـديـلا يحمل اسم سلطان مصر، ولقد حسبت الكمية الفضية الموجودة في هذا المكان فوجدتها ألف رطل من الفضة مبعثرة في ثنايا القبة.

ورأيت في قبـة الصخـرة شمعـة ضخمـة يبلغ ارتفـاعهـا نحـوا من سبعـة أذرع، يصـل سمكهـا إلى ثلاثـة أشبار، أشد بياضا من الكافور، مخلوطة بالعنبر تملأ المكـان برائحـة العنبر الفواح، عندما تضاء، ويقولون إن سلطان مصر بعث هذه الشمعة مع ما اعتاد إرساله كل عام من الشموع الكثيرة النادرة.

ولا بدع أن يحتفل ملوك الإسلام بهذا البيت المقدس فهو ثالث الحرمين كما هو معـروف متـواتـر بين علماء المسلمـين أن الصـلاة في بيت المقدس توازى خمسا وعشـرين ألـف صلاة في غيره، والصـلاة بمـدينة الرسول ﷺ توازى خمسين ألـف صلاة في غيره، والصـلاة في مكـة المكـرمـة شرّفهـا الله توازى مائة ألف صلاة في غيرها، أسأل الله أن يوفق عباده لهذه المنة العظيمة.

ولقد ذكرت أن جميع أسطح وسقوف المسجد مطلية بالرصاص حتى لا تتسرب إليها مياه الأمطار، وقبة الصخرة ليست استثناء من القاعدة ويحيط بجهات قبة الصخرة الأربع أبواب كبيرة ذات مصارع من خشب الساج الصلب، وتلك الأبواب مغلقة دائما.

قبة السلسلة

وبعد قبة الصخرة يشاهد المرء قبة السلسلة. وهي قبة يزعمون أن النبي داود عليه السلام علقها هناك، ولا تصل إليها يد مخلوق أبدا، كما لا تصل إليها يد غاصب أو ظالم يريدها بأذى وهذا معنى معروف لدى العلماء. وتنام قبة السلسلة على أكف ثمانية أعمدة مرمرية وستة أساطين حجرية، وجوانب القبة الثلاثة مفتوحة عدا الجانب الموازى للقبلة فإنه مغلق بإحكام، وللقبة محراب رائع.

قبة جبريل

وفي جانب من جوانب هذا البناء العظيم يرى المرء قبة ثالثة، تعلو أربعة أعمدة رخامية، وهذه القبة أيضا مفتوحة من جوانب ثلاثة، أما الجانب الرابع الموازى للقبلة فإنه مغلق، وتسمى هذه القبة قبة جبريل عليه السلام، ولا أثر لأى نوع من الفراش في هذه القبة، فكل أرضيتها مفروشة بالحجارة، ويزعمون أن البراق الذى حمل النبي إلى السماء حضر إلى ذلك المكان حتى يمتطيه النبي ﷺ.

قبة الرسول صلى الله عليه وسلم

وبعد قبة جبريل يرى المرء قبة النبي ﷺ، والمسافة بين قبة جبريل وقبة رسول الله ﷺ عشرون ذراعا. وهي قبة ترتفع على أربعة أعمدة مرمرية، ويقولون إن الرسول ﷺ صلى في قبة الصخرة ليلة المعراج، ووضع يده الشريفة

على الصخـرة، ولما همّ عليه الصـلاة والسـلام بمغـادرة المكـان بعد فراغه من الصـلاة، قامت الصخـرة من مكـانهـا إجـلالا لرسـول الله. فوضع الرسول يده الشـريفـة عليهـا فعادت إلى مكانها، ولكن ظلت إلى اليوم نصف معلقه، وجاء الـرسـول إلى الصخـرة التي تدعى اليـوم باسمـه وامتطى البراق، ولذلك يعظم المسلمـون هذه القبـة المسماة بقبة الرسول ويرى المرء تحت الصخرة التي عليها قبة الـرسـول غارا كبـيرا فيـه شمـوع كبيرة مشتعلة أبدا. ويقولون إن الصخرة حين تحركت من مكانها إجلالا للرسول ظل المكان خاليا وتحول الى هذا الغار العظيم.

صفة هيئة الطرق المؤدية إلى المقام

ينتهي الطـريق إلى المقـام من ستـة طرق ولكـل طريق اسم خاص: ففي الجانب الشرقي والقبلي طريقان يصعد إليهما بدرجات، فإذا توسطت ضلع المقام القبـلي وجـدت بعض الـدرجـات على يمينـك والأخـرى على شمالك، فالجهة اليمنى تقودك إلى مقام النبي ﷺ والدرجات اليسرى تحملك إلى مقام الغورى.

ويسمى هذا المكـان بمقـام النبي لأن الرسول ﷺ، صعد هذه الدرجات ليلة المعـراج في طريقـه إلى قبة الصخرة لأداء صلاة الشكر، ويقع طريق الحجاز عنـد مقـام النبي، وسعـة الـدرجـات المؤ ديـة إلى مقام النبي عشرون أرشا وهي درجـات من قطعـة حجـريـة واحـدة أو قطعتين على الأكثر، وفي الدرجات سعة تسمح بصعود البغال لو احتاج الأمر إلى ذلك، وفي أعلى الدرجات أربعة عمد من المـرمـر الأخضـر الشبيه بالزمرد، وارتفاع كل عمود نحوا من عشرة أذرع وهي أعمدة سميكة حتى إن الرجل لا يستطيع تطويق أى منها إلا بجهد شديد. وفي أعلى هذه الأعمـدة الأربعـة ثلاثـة أواوين يقـابـل أحدها بوابة مقام النبي ﷺ. والآخـران يقـابـلان الجـانب الآخـر. وقد امتلأت الأعمدة والأواوين التي فوقها بنقـوش أخـاذة جميلة تلفت النظـر، والممرات المؤ دية إلى المقام يزينها مرمر أخضر

منقط ويشعر المرء كما لو كان يسير في حديقة غناء ذات ورود يانعة مزهرة.

ومقام الغورى الذي يجاور مقام النبي على نفس الهيئة الجميلة أيضا، وعلى مقام الغورى لوحة تحمل كتابة لطيفة تقول: هذا مقام الغورى أمر ببنائه الأمير ليث الدولة توشتكين الغورى، ويقولون إن ليث الدولة هذا كان أحد مماليك سلطان مصر. وهو الذى عمّر هذه الممرات والطرق في هذا الجزء من المسجد الأقصى.

ويرى المرء في الجانب الغربي من الساحة مقاما آخر ذا جزءين له درجات تؤدى إليه ولا يخرج في شكله الهندسي عما يحيط به من المقامات، كما يرى المرء في الجانب الشرقي ممرا بالغ الروعة تحف به الأعمدة وتعلوها الأواوين وفي أعلاه شرفة جميلة يقال لها المقام الشرقي وإذا نظرت إلى الجهة الشمالية وأنت في الساحة رأيت طريقا أجمل من الطرق الأخرى وأكبر، ويسمى المقام الشامي. وقدرت تكاليف هذا المحراب التي تؤدى إلى المقامات المقامة في الساحة فقدرت أنها تربو على مائة ألف دينار.

ورأيت في ساحة المسجد أيضا مكانا لا يشبهه أى مقام كأنما هو مسجد صغير ويقع في الجانب الشمالي من الساحة، وهو شبيه بالحظيرة مبنى بالحجارة ولا يزيد ارتفاع جدره عن قامة رجل ويسمى المكان محراب داود. وبقرب المسجد صخرة في طول رجل يزعمون أنه كان عرش سليمان النبي وهي صخرة عادية. ويقولون إن سليمان كان يتخذها عرشا يشرف منه على بناء المسجد، وهذا المعنى مكتوب في حوائط بيت المقدس، ورأيته بأم عيني وصورته وأثبته في يومياتي، ومن النوادر التي رأيتها خلال جولاتي في بيت المقدس شجرة من أشجار الحور.



زيارة الخليل

بعد أن فرغت من زيارة بيت المقدس على الصفة التي ذكرتها، عزمت على زيارة سيدنا إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، ففي يوم السبت غرة شهر ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة غادرت بيت المقدس والمسافة من بيت المقدس إلى مشهد الخليل ستة فراسخ، ويقع المشهد جنوب بيت المقدس.

والطريق إلى مشهد الخليل زراعية، فهناك قرى كثيرة ومزارع عظيمة من أشجار العنب والتين والزيتون والسمّاق والذي ينمو نموا طبيعيا يملأ الطريق.

وبعد مسيرة فرسخين وصلنا إلى مدينة «القرى الأربع» ورأيت هناك عينا جارية وحديقة وبساتين وافرة وتسمى المحلة بالفراديس.

وعلى بعد فرسخ واحد من بيت المقدس يوجد مكان يقدسه المسيحيون ويجلونه، ويتجمع فيه منهم أعداد كبيرة على مدار السنة، يجاورون فيه ويتعبدون، ويقدمون القرابين ويأتون إليه من رومية، كما رأيت فيه خلقا كثيرا من مسيحيي إيران، ويسمى ذلك المكان «بيت لحم» ولقد وصلت إلى هذا المكان ليلا قادما من بيت المقدس.

صفة الخليل

أهل الشام وبيت المقدس يسمون هذا المشهد الخليل، رغم أن اسم القرية التي يقع فيها المشهد تسمى «مطلون» وهي موقوفة على هذا المشهد، ضمن قرى أخرى كثيرة.

وفي قرية مطلون هذه رأيت عين ماء تسيل من بين الأحجار، وماؤ ها شحيح، وقد بنوا طريقا إلى العين وسحبوها إلى القرية، كما بنوا حول العين حوضا بغطاء محكم يحول بين الماء وبين التبخر، وقد أعدّ الماء المتجمع في الحوض لشرب السكان والطارئين.

ويقع مشهد الخليل في حافة قرية المطلون الجنوبية، وإذا شئنا التحديد يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية.

والمشهد بناء ذو أربعة أضلاع من الحجارة المهندمة، وارتفاعه نحواً من ثمانين ذراعاً وعرضه أربعون ذراعاً. ويقع المحراب والمقصورة في عرض المشهد، وتشتمل المقصورة على عدد من المحاريب الجميلة، كما يوجد داخل المقصورة مقبرتان وقد وضع القبران بحيث تكون رأساهما مسامتين للقبلة، وقد رفع القبران عن أرض المقصورة بقامة رجل. والقبر الذى على اليمين هو قبر إسحق ابن إبراهيم، والآخر الذى على اليسار قبر زوجته عليهما السلام، وبين القبرين مسافة عشرة أشبار.

وقد فرشت حوائط أرضية المشهد بفرش ثمينة، وازدانت الأرض بالفرش المغربية القيّمة، التي تضاهي الحرير، ولقد رأيت سجادا قيما يقال إن أمير الجيوش مملوك سلطان مصر، هو الذى أرسله إلى المشهد ويقولون إن ثمن هذه السجادة في مصر ثلاثون دينارا ذهبيا مغربيا. ولو أن تلك السجادة كانت من

الحرير الرومي لما زاد سعرها على ذلك ولم أر أجمل من تلك السجادة في أى مكان آخر.

إذا خرجت من المقصورة إلى ساحة المشهد رأيت مشهدين يسامتان القبلة، والمشهد الأيمن يشتمل على قبر إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه، وهو بناء ضخم، داخل حجيرة لا يمكن الدخول إليها، وللحجيرة ثلاثة شبابيك ينظر الناس من خلالها إلى القبر، ويمكن مشاهدة هذين القبرين من خلال تلك الفتحات الثلاث، والمشهد مليء بالبسط الثمينة التي تغطى أرضه وكلها من الحرير الخالص. وعلى القبر طائفة كبيرة من القناديل الذهبية والفضية المشتعلة دائما.

والمشهد الآخر في الساحة ويقع في الجانب الأيسر ويشتمل على قبر سارة زوج إبراهيم عليهما السلام، وبين المشهدين ممر يفصل بينهما، وتقع الأبواب المؤدية إلى المشهدين في هذا الممر، والممر مليء بالقناديل والمسارج.

وإذا تركت القبرين جئت إلى قبر ثالث على يمينك هو قبر يعقوب عليه السلام، وعلى يسار قبر يعقوب يقع قبر زوجته عليهما السلام، وبعد هذه القبور يرى المرء حجرات كثيرة يقال إنها دور ضيافة بناها إبراهيم عليه السلام.

وخلف جدر مشهد الخليل من الخارج توجد ستة قبور تقع في مكان منحدر.

أحد هذه القبور قبر النبي يوسف عليه السلام، له قبة حجرية رائعة، وفي الفضاء الذى بين مشهد الخليل وقبر يوسف مقبرة عامة يدفن فيه الموتى الذين تجلب جثمانهم من كل أطراف الأرض.

وتقـع في أعلى مشهـد الخليـل حجـرات كثـيرة مخصصـة للضيوف الذين يؤمون المشهد ويتبع تلك الحجرات وقوف كثيرة تشمل كثيرا من القرى الزراعية وبعض ريـع بيت المقـدس يصـرف على زوار المشهـد، فيعطى لكـل زائـر خبـز وزيتـون، كما توجـد مطـاحن تطحن الحبـوب كل يوم، وعـدد من الخدم يقومون بعجن الدقيق وخبزه، ولكل من جاور الخليل نصيب من هذا الخبز مع شيء من العدس المطبوخ والزبيب وهذه عادة قديمة منذ زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ولا تزال جاريـة الى اليـوم، ويصـل عدد المجاورين في بعض الأيام إلى خمسمائة زائر، وكلهم ينعم بذلك الكرم الإبراهيمي.

ويقـولـون إن هذا المشهـد الإبـراهيمي لم يكن له وجـود ولم يكن في مقدور الإنسان أن يصل إليه، فلما كان حكم المهدى الفاطمي، وبعد أن فتح مصر أمر بإعـداد المكـان وتسهيـل دخـول الـزائـرين إلى المشهد وأقيمت الطرق والأبواب المؤدية إليه، وزين المشهد بالأثاث وأعدّت أماكن لاستقبال الزوار وراحتهم.

حجة المؤلف الأولى سنة ٤٣٨هـ

عدت من مشهد الخليل الى بيت المقدس، وخرجت من بيت المقدس سيرا على الأقدام مع جمع من الحجاج في طريقنا إلى الحجاز بنية الحج، وكان دليلنا رجلا جلدا على السير ومن المشائين المحترفين، وكان رجلا مهذبا يدعى «أبو بكر الهمداني» وكان خروجنا من بيت المقدس في منتصف شهر ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مكان يدعى «ارعز» وكان مكانا وفير الماء كثير الخضرة.

ثم وصلنا إلى مكان آخر يقال له «وادى القرى» ومن هناك وصلنا إلى مكة المشرفة بعد سير عشرة أيام، ولم يسافر إلى الحج في ذلك العام أى راكب، وكان الطعام شحيحا.

نزلت في سكة العطارين بمكة شرفها الله، وهي أمام باب النبي عليه الصلاة والسلام، وكان يوم عرفة هو يوم الاثنين، وكان الطريق مليئا بالأعراب الخطرين الذين لا يتورعون عن القتل والسلب.

في اليوم الخامس من محرم سنة تسع وثلاثين وأربعمائة وصلت إلى القدس، وسأتحدث عن حال مكة والحج في مكان آخر إذا قدر لي الحج مرة أخرى.



بيعة القمامة في القدس

للنصارى كنيسة في بيت المقدس تدعى «بيعة القمامة» وهم يعظمونها غاية التعظيم، ويؤمها كل عام خلائق كثيرة من نصارى الروم، ويزعمون أن ملك رومية أيضا يحج إليها متخفيا.

ويروى أنه في أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله جاء قيصر الروم إلى بيعة القمامة حاجا، وقد بالغ في التخفي، إلا أن عيون الحاكم بأمر الله في القدس علمت بذلك وأخبرته فأرسل الحاكم بأمر الله إلى القيصر فارسا من فرسانه، وأمر الحاكم رسوله بالذهاب إلى البيعة والتفتيش عن رجل هيئته كيت وكيت، وقل له إن الحاكم بأمر الله أرسلني إليك وهو يعلم بوجودك هنا ولكن لا بأس عليك. أراد فقط أن يخبرك أنه يعرف كل ما يدور في ملكه لا تفوته شاردة ولا واردة.

ثم أمر الحاكم بأمر الله بالغارة على تلك الكنيسة ونهبها وحرقها، وظلت أطلالا حتى بعث قيصر الروم رسلا وهدايا ورسائل التماس كثيرة وطلب الصلح مع سلطان مصر، ورجاه السماح بإعادة تعمير الكنيسة، وقد أجاب السلطان رغبة القيصر وسمح بإعادة تعميرها.

والكنيسة بناء بالغ السعة والكبر حتى أن ثمانية آلاف شخص يستطيعون أداء الصلاة فيها في وقت واحد، وهي آية في الروعة المعمارية تزينها الأساطين

المـرمـريـة العملاقة، المليئة بالنقوش والتهاويل، وقد فرشت من الداخل بالبسط الـروميـة الحـريـرية. واحتشدت بصور القديسين والقديسات كلها مطلية ومموهة بالـذهب ويتـوسـط الكنيسة صورة للمسيح وقد امتطى حمارا وهذه الصورة يراها المـرء في أكثـر جهـات الكنيسـة، كما توجد بالكنيسة صور أنبياء آخرين كإبراهيم وإسماعيـل وإسحق ويعقوب وأبنائه، وكلها صور زيتية تغطيها صفائح رقيقة من الأغطيـة شديـدة الشفـافية تمنع الغبار من التساقط على الصور المقدسة ولكنها لا تحول بين مشاهدتهم ويتولى الخدم الكثيرون في الكنيسة نزع تلك الأغطية كلما تجمع عليها الغبار وتنظيفها وإعادتها إلى أماكنها.

وفي الكنيسـة صورتـان على درجة كبيرة من الفن تمثلان الجنة والنار، وفي اللوحة التي تمثل الجنة، يرى المرء الجنة وأهلها وما أعد لهم من النعيم وفق تصور النصارى لنعيم الجنة.

وفي لوحة الجحيم، يصورون النار وأهلها وما هم فيه من العذاب والعناء، وفي كنيسة القمامة هذه أعداد هائلة من القساوسة والرهبان يقيمون بصفة دائمة، شغلهم الشاغل قراءة الأناجيل، والاستغراق في الصلاة والعبادة ليلا ونهارا.

وعـزمت بعـد الانتهـاء من زيـارة بيت المقـدس على السفر إلى مصر عن طريق البحر كما عزمت على أداء الحج عن طريق مصر إن شاء الله.

وعنـدمـا ركبنـا السفينـة علمنا أن الرياح لا تساعد على السفر فنزلت من السفينة وسرت برا، ومررت على مدينة الرملة، وعبرتها إلى مدينة عسقلان.

وعسقلان مدينة كبيرة من مدن الشام ذات أسواق عامرة ومساجد عظيمة ورأيت في عسقـلان إيـوانـا عتيقـا، زعموا أنه بقايا مسجد قديم، والإيوان عظيم

جدا لو فكر حاكم في هدمه لأنفق في ذلك الكثير من الجهد والمال.

سرت من عسقلان وتوغلت في قرى كثيرة لو أردت الحديث عنها جميعها لاستغرقت صفحات كثيرة.

ثم وصلنا إلى مكان يسمى «طينة» وهو ساحل وميناء عظيم، يغص بالسفن وعلى هذه السفن يسافر الناس إلى مدينة «تنيس» المصرية.



الديــار المصريــة

ركبنـا إحـدى السفن المسـافـرة إلى «تنيس» وهي جزيرة تحتضن المدينة في أعـماقهـا، بحيث أن المرء لا يرى البحر ولو صعد إلى أسطح المدينة. وهي مدينة شديدة الازدحام، كثيرة السكان. ولها مسجدان، ولقد أحصيت بها قرابة عشرة آلاف دكان، ورأيت مائة دكان لا تبيع سوى العقاقير الطبية.

ويكثـر في أسـواقها شراب الشعير المطبوخ في الصيف حيث أن الجو شديد الحرارة في فصول الصيف.

ورأيت في أسـواق «تنيس» عمائم تنسـج من القصب، كما رأيت عصـائب كثـيرة، مما يستعمله النسـاء على رؤوسهن، ولم أجـد مثـل هذه العـمائم المقصبة ذات الألـوان البهيجـة في أى مكـان غير «تنيس». أمـا العـمائم البيضاء الخالصة البياض فقد رأيتها في مدينة «دمياط».

وفي المـدينـة دور للنسـج السلطاني لا يباع منها لأحد من الناس، فهي من جملة الخـاصـة السلطـانية، وبلغني أن أحد ملوك فارس أرسل عشرين ألف دينار لشراء أحد هذه الثياب السلطانية، وظل رسل الملك في تنيس سنين يحاولون شراء تلك الثياب دون طائل.

وتشتهـر «تنيس» بحـذاق النسـاجـين الـذين لا مثيـل لهم في أى مكان في العـالم. وسمعت أن شخصـا ما في هذه المـدينـة نسج عمامة لسلطان مصر فأمر له السلطان بخمسمائة دينار ذهبي مغربي ، ولقد رأيت تلك العمامة فإذا هي تساوى ألفي دينـار ذهبي مغـربي ، وينسجون في هذه المدينة نسيجا يعرف بالطاووس لا نظـير له في العـالم، وهـو نسيـج تتخلله خيوط ذهبية تتلون خلال النهار وفي ضوء الشمس بألوان مختلفة زاهية.

ويحمل نسيج الطاووس هذا من تنيس إلى مختلف أنحاء العالم، ويعتبر من أندر التحف.

وسمعت أن أحـد سلاطـين رومية بعث رسولا إلى سلطان مصر طالبا منه أن يعطيه مدينة تنيس مقابل مائة مدينة من مدن الروم ، ولكن سلطان مصر أبى ذلـك. وكـان الـذى أغرى سلطان رومية بهذا الطلب الغريب هو إعجابه بنسيج مدينة تنيس وخاصة نسيجها الطاووسي.

وإذا فاض نهر النيل في موسم الفيضانات طرد الماء المالح الذى حول تنيس ويظـل ماء النيـل العـذب يغمـر أرض المدينة إلى مسافة عشرة فراسخ. ويستغل النـاس فرصـة الفيضـانـات وتكـاثـر المياه الحلوة فيبنـون الأحـواض والخزانات ويملأونهـا بماء النيـل الخـالـد. وتسمي تلك الخـزانات بالمصانع. ولهذه المصانع وقوف كثيرة يسقى ويطعم منها الوافدون إلى المدينة.

وحامية المدينة تتكون من خمسين ألف مقاتل، وترابط في ميناء المدينة ألف سفينة حربية، وبعض تلك السفن من خاصة السلطان وبعضها ملك للأفراد. كما تقـوم هذه السفن بجلب المؤن والمـواد الغذائية إلى المدينة التي لا شيء فيها، حيث إنهـا جزيـرة منعـزلـة في وسـط البحـر. وكـل مبادلات المدينة التجارية تتم

بواسطة السفن البحرية. وحامية المدينة يقظة دائما ومحتاطة من هجوم الفرنجة والروم.

وسمعت من أحد الثقاة أن هذه المدينة تبعث يوميا بألف دينار مغربي إلى خزائن السلطان في مصر. وتصل تلك النقود إلى خزائن السلطان في ساعة معينة كل يوم. والمكلف بتحصيل هذا المبلغ شخص واحد معيَّنٌ من قبل السلطان لهذه المهمة. وهو يأخذ هذا المبلغ دون حاجة إلى اللجوء إلى العنف ويرسله إلى الخزانة السلطانية كاملا غير منقوص.

وترسل الخزانة السلطانية كل تكاليف النسيج الخاص بالسلطان ولا تظلم أحدا حقه، بعكس ما رأيته في أماكن أخرى من العسف والظلم والطغيان من قبل مآمير السلطة.

ورأيت في المناسج التابعة لخاصة السلطان في تنيس مصانع متخصصة في نسج الآلات الخاصة بزينة جمال وحمير وخيول السلطان، والغالب في ذلك النسيج هو الخيوط المستعملة في النسيج الطاووسي الذى تحدثت عنه آنفا. والفواكه والخضروات تحمل إلى المدينة من ريف مصر.

وفي المدينة حرف حديدية كثيرة كالمقصات والسكاكين والآلات الزراعية المختلفة.

ويصاب نساء هذه المدينة بعلة غريبة تشبه الصرع، فيصرخن صرخات متتالية ويغمى عليهن ثم تزول علتهن بعد حين، ولقد سمعت وأنا في خراسان أنه توجد جزيرة ماء يموء نساؤها كمواء القطط، وربما كانت هذه هي الحال، وهذه هي الجزيرة التي يتحدثون عنها...

وتقطع السفن المسافة من تنيس إلى القسطنطينية في عشرين يوما، ثم غادرنا تنيس في طريقنا إلى مصر، وصعدنا باخرة كانت تسير بنا في نهر النيل صعدا.

وعندما يقترب نهر النيل من البحر يتفرع إلى فروع كثيرة تصب في البحر كل فرع على حدة، وكان الفرع الذى أبحرنا خلاله يسمى «الرومي». وكانت تقابلنا السفن رائحة غادية في هذا البحر حتى وصلنا إلى مدينة تسمى «الصالحية» وهي ريف كثير النعمة وذو وفرة في المواد الغذائية، وفي الصالحية أحواض كثيرة لبناء السفن. وتحمل كل سفينة من تلك السفن ما يعادل مائتي طن من المواد الغذائية تحملها إلىٰ مصر حيث تنتشر في دكاكين البقالين، ولولا هذه السفن لاضطر سكان مصر إلى حمل المواد الغذائية على ظهور البغال، وفي ذلك مشقة وتأخير للمواد الغذائية وربما أدى إلى فسادها وتلفها وتعفنها.

نزلنا من السفينة في هذه المدينة «الصالحية»، وقضينا ليلتنا في المدينة.

القاهـــرة

وفي يوم الأحد السابع من شهر صفر سنة تسع وثلاثين وأربعمائة كنا في القاهرة.

صفة مدينة مصر وولاياتها

ينبع نهر النيل من الجنوب وينحدر إلى مصر ثم ينتهي في مياه البحر وعندما يفيض النهر فإن مياهه تزداد زيادة كبيرة تعادل ضعفي نهر جيحون بترمذ، ويمر نهر النيل ببلاد النوبة قبل أن يصب في مصر. وولاية النوبة بلاد جبلية تتحول إلى سهل منبسط عندما تحاذى مصر، وأسوان أول حدود بلاد النوبة، ويقولون إن المسافة من مصر إلى أسوان حوالي ثلاثمائة فرسخ. وكل مدن مصر وولاياتها تقع

على حوض نهر النيل والجهة الجنوبية من مصر تسمى الصعيد الأعلى.

وعندما تصل السفن مصعدة في النيل إلى أسوان فإنها لا تستطيع عبور المدينة لأن المياه تنحدر هناك من خلال ممرات ضيقة لا تسمح بمرور السفن إلى جانب أن مياه النيل تنحدر من تلك الممرات بشكل قوى جدا.

وفي أعلى أسوان في الناحية الجنوبية تقع بلاد النوبة. وتعتبر بلاد النوبة ولاية منفصلة عن مصر لها ملكها الخاص وأهلها سود ودينهم المسيحية.

يذهب التجار إلى بلاد النوبة حيث يجلبون العاج وبعض الأحجار الكريمة كما يجلبون العبيد، وكل الرقيق من مصر إما من النوبة أو من الروم. ورأيتهم يجلبون من بلاد النوبة نوعا من القمح والذرة وكلها سوداء اللون، ويقولون إن أحدا لم يستطع معرفة مصب النيل. ويحكى أن سلطان مصر أرسل شخصا ومكث عاما يبحث عن مصب النيل دون جدوى. والشيء الوحيد الذى توصل إليه ذلك الشخص هو أن النيل يأتي من الجنوب وينبع من جبل يقال له جبل القمر كما يقولون إنه عندما تكون الشمس في برج السرطان فإن مياه النيل تزداد وتشرع الفيضانات التي يبلغ ارتفاعها حوالي عشرين ذراعا.

وفي مدينة مصر مقاييس وعلامات كثيرة يشرف عليها أحد العلماء لقياس مياه النيل أثناء الفيضان، وراتبه الشهرى ألف دينار.

وعندما يشرع النيل في الزيادة يبعث السلطان مناديا في مصر يعلم الناس بمقدار الزيادة في النيل، ويظل كذلك طوال زمن الفيضان، وعندما يبلغ الفيضان النيلي مداه، تعلن البشائر للناس ويطلب إليهم التجهيز والاستعداد للاحتفال بوفاء النيل. وتبدأ البشائر عندما يبلغ ارتفاع الماء ثمانية عشر ذراعا لأنه

الارتفاع المطلوب، فإذا نقص المقياس عن ذلك اغتم الناس وسارعوا إلى الدعاء وتـوزيـع الصـدقـات على الناس، أما إذا زاد عن ثمانية عشر ذراعاً فإن ذلك من دواعي سرورهم وفرحهم واستبشارهم.

وسلطان مصر لا يأخذ الخراج من أهل مصر إلا إذا بلغ المقياس ثمانية عشر ذراعا.

ونظام الرى والصرف على حوض النيل نظام فريد، فقد حفرت القنوات في كثـير من جوانب النيـل، وتنتهي القنـوات بأحـواض صغـيرة تستقر فيها مياه الفيضـان، وحـول تلك القنوات والأحواض قرى كثيرة وريف طويل ممتد وعلى طول هذه القـرى والأريـاف، دواليب ترفـع المـاء لتنظيم الرى والصرف، وتلك الدواليب لا يدركها الحصر.

وتقع جميع قرى مصر ومدنها على مرتفعات فوق كتف الوادى المقدس وقد بنيت كذلك حتى تكون في نجوة من الغرق في وقت الفيضانات، وينتقل الناس من مكان إلى آخر على الزوارق النهرية.

ورأيتهم يبنون سدودا في كل ولاية في مصر في مواسم الفيضانات من أول المدينة إلى آخرها وأغلبها سدود ترابيه، والفكرة من هذه السدود هي الحيلولة بين الناس والوقوع في مياه النيل وقت الفيضانات حيث تصل المياه إلى حواف المدن والقرى.

ويفـرض لهذه السـدود عشـرة آلاف دينـار مغـربي من خزانـة السلطـان لترميمها في كل عام.

والنـاس في مصـر يستعـدون لشهـور الفيضـانـات الأربعة هذه استعدادا عظيـما. فقبـل أن تغمـر الميـاه جميع حقولهم يخزنون كل ما يحتاجون إليه من المؤن والمـواد الغـذائيـة الضـرورية، ويخبزون كثيرا من الخبز ويجففونه حتى لا يتعرض للتعفن ويكون معظم غذائهم مدة الفيضان.

والقـاعـدة في فيضـانـات النيل أنها تزيد خلال أربعين يوما وفي نهاية المدة تصل إلى أقصى مداها. وتظل المياه ثمانية عشر ذراعا لمدة أربعين يوما ثم تأخذ في الانخفاض التدريجي وتستغرق أربعين يوما ثالثة.

وعنـدمـا تبـدأ ميـاه الفيضـانـات في الانخفـاض يبدأ المزارعون في زراعة المساحات التي ينحسر عنها الماء من الأرض وزراعات المصريين صيفية وشتوية، والأرض في غاية الارتواء بعد انحسار الفيضانات بحيث لا تحتاج إلى رى مجدَّد.

وتقـع مدينـة مصـر بين نهر النيـل والبحـر، وكـما ذكرت فإن النيل ينبع من الجنوب ويصب في بحر الشمال.

والمسـافة بين مصر والإسكندرية ثلاثون فرسخا، وتقع مدينة الإسكندرية على ساحـل بحـر الـروم وحافة نهر النيل، وتنقل السفن أنواعا كثيرة من الفواكه من ميناء الإسكندرية إلى مدينة القاهرة.

ورأيت منـارة الإسكـنـدريـة وهي مقـامة على شاطيء البحر، وفي أعلاها مرايا عاكسة كبيرة بحيث إن السفن إذا قدمت من بحر الروم لا تكاد تقع عليها تلك الأشعة الحارقة من منارة الإسكندرية حتى تشب فيها الحرائق.

ولقـد فكـر الروم ودبروا للتخلص من هذه المرايا الحارقة، وأرسلوا شخصا استطاع كسر تلك المرايا الحارقة.

ويحكي أنه في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي ذهب إليه رجل من العلماء طلب منه الإذن في إصلاح تلك المرايا وإعادتها إلى حالتها الأولى، ولكن الحاكم أخبره أن لا حاجة لنا بذلك، لأن الروم يؤدون الخراج في كل عام، وقد رضوا بأن تذهب سفننا إلى بلادهم، كما أن عساكرنا تتجول في مياههم والعلاقات بيننا وبين الروم جيدة وطبيعية.

ولا توجد بالإسكندرية مياه للشرب إلا تلك التي تتجمع خلال الأمطار وفي جميع أرجاء الصحراء المحيطة بالمدينة يرى المرء أعمدة مرمرية كثيرة كتلك التي رأيتها في بيروت[1].

ويمتد بحر الإسكندرية إلى القيروان والمسافة بين مصر والقيروان مائة وخمسون فرسخا.

والقيروان ولاية كبيرة قاعدتها مدينة «سجلماسة» التي تبعد عن بحر الروم مسافة أربعة فراسخ، وهي مدينة عظيمة تقع على حافة الصحراء الإفريقية، ولها سور محكم، وتقع مدينة سجلماسة بجوار المهدية، ومدينة المهدية هذه بناها المهدى من أبناء أمير المؤمنين الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما، بعد استيلائه على المغرب والأندلس. والمهدية اليوم من أملاك سلطان مصر وهو من أحفاد المهدى وتسقط في القيروان بعض الثلوج خلال فصل الشتاء، ولكنها ثلوج خفيفة، والمسافة بين الأندلس ومصر ألف فرسخ، وسكان الأندلس مسلمون.

والأندلس ولاية جبلية عظيمة، تسقط فيها الثلوج وتتجمد المياه، وأهلها من الجنس الأبيض وشعورهم حمراء وعيونهم زرقاء كالصقالبة. وتطل الأندلس

---

(١) ربما كان المؤلف يشير إلى الأعمدة الرومانية والمسلات القديمة التي تكثر في الشام ومصر؟ (المترجم).

على بحر الروم، ويحيط بحر الروم بالأندلس في أكثر من جهة. ويخرج المسلمون من الأندلس إلى رومية للغزو. والطريق المائي بين الأندلس والقسطنطينية مليء بالخلجان والجزر التي تتراوح سعتها بين مائتين إلى ثلاثمائة فرسخ، ولقد سمعت من بعض الثقاة أن محيط بحر الروم أربعة آلاف فرسخ، ويقع جانب من هذا البحر العظيم في بحر الظلمات ويزعمون أن ذلك اللسان الممتد من بحر الروم والداخل في بحر الظلمات آسن دائما لأن الشمس لا تطلع عليه.

وتدعى إحدى جزر بحر الروم «صقلية» وتبحر السفن من مصر إلى جزيرة صقلية في عشرين يوما، والجزر في بحر الروم كثيرة، ويقولون إن مساحة جزيرة صقلية ثمانون فرسخا في ثمانين فرسخا، والجزيرة تابعة لسلطان مصر.

وتأتي إلى مصر سفينة في كل عام من تلك الجزيرة محملة بالأموال، كما يحضرون نوعا من القطن القصير التيلة، ونوعاً من القماش المقلم الفاخر، تباع الطاقة منه في مصر بعشرة دنانير مغربية.

وإذا خرجت من مصر واتجهت شرقا انتهيت إلى بحر القلزم، والقلزم اسم مدينة على ساحل البحر، والمسافة بين مصر والقلزم ثلاثون فرسخا. والقلزم فرع من فروع البحر المحيط، ويبدأ هذا الفرع من عدن في الجنوب ويصعد إلى الشمال، وعندما يلتقي بحر عدن ببحر القلزم تخف حدة البحر ويصبح رهوا، ويقولون إن عرض هذا الخليج مائتا فرسخ.

ويفصل مصر عن بحر القلزم صحراء واسعة ومجموعة من الجبال وتلك الصحراء قاحلة جدباء لا ماء فيها ولا نبات، وهي طريق الحجاج المصريين الذاهبين إلى الحجاز للحج.

وعندما ينتهي الطريق من مصر إلى القلزم، يتفرع فرعين، برى وبحرى. أما الطريق البرى فيستغرق السفر عليه خمسة عشر يوما للوصول إلى مكة، وهو طريق صحراوى طوله ثلاثمائة فرسخ، وكل قوافل الحجاج المصريين تسلكه. أما الطريق البحرى فإنه يستغرق عشرين يوما وينتهي إلى ميناء «الجار»، والجار قرية صغيرة في أرض الحجاز تقع على ساحل البحر، ومن الجار إلى «المدينة المنورة» ثلاثة أيام، والمسافة بين مكة والمدينة مائة فرسخ.

وإذا عبر المرء ميناء «الجار» وظل مبحرا جنوبا وصل إلى ساحل اليمن وعدن، وإذا أبحرت السفينة من عدن فإنها تصل إلى الهند وهكذا إلى الصين. وإذا اتجهت السفينة إلى الجنوب الغربي من عدن وصلت إلى «زنجبار» و «الحبشة» وسيأتي شرح هذا الخط البحري فيما بعد.

إذا خرج المرء من مصر واتجه جنوبا وعبر ولاية النوبة، فإنه يصل إلى ولاية المصامدة وهي أرض ذات مراعي عظيمة دائمة الخضرة، سمينة القطعان وأهلها سود ذوو أجسام قوية، وجمهرة جند مصر من رجال المصامدة هؤلاء. وهم قوم في غاية القبح وضخامة الأجسام وغلظة القلوب، وهم أغلب جيش المشاة في مصر. يتقنون فنون الحرب بالسيوف والرماح ولا مهارة لهم في غيرها من أدوات الحرب.

صفة مدينة القاهرة

أول ما يواجه القادم من الشام إلى مصر هي مدينة «القاهرة» لأنها تقع جنوب وادى النيل مما يلي الشام. وتسمى بالقاهرة المعزية، أما الفسطاط فيطلق على معسكر مصر.

وقصة بناء القاهرة هي أن أحد أبناء أمير المؤمنين الحسين بن علي صلوات الله عليهم أجمعين المسمى بالمعز لدين الله، بعد أن ملك المغرب وبسط سلطانه

على الأنـــدلس، بعث إلى مصـــر جيشـا عظيـما. ومـع أن نهر النيـل كان مليئـا بالتـماسيـح الوحشية الهائلة، التي لا ترى في طريقها شيئا يتحرك إلا ابتلعته، فإن جيش المعـز لدين الله استطـاع عبـور ذلك النهر العظيم وفتح مصر. ويزعمون أن السحرة وضعوا حول نهر النيل بعض الطلاسم التي تمنع أذى التماسيح عن الناس والحيوانات على الساحل. أما النهر فإن أحدا لا يستطيع الاقتراب منه أبدا.

كما يحكي أن المعـز لدين الله أمـر جيشـه عند الوصول إلى مصر وقبل عبور النيـل أن يطلقـوا أمـام الجيش كلبـا أسـود ثم يعـبر ون خلفـه وهكذا كان، فلم يتعرض أحد من الجيش لأذى التماسيح.

ويقـولـون إن عدد جيش المعـز لدين الله الـذى عبر النيـل كان يتكون من ثلاثـين ألف فارس بكـامل عدتهم، وكلهم من مماليك السلطان، يتقدمهم ذلك الكلب الأسـود سابحـا ولم يسبق لجيش كهـذا، أن عبر النيل من قبل، وكان فتح مصر سنة ثلاث وستين وثلاثمائة.

أمـا المعـز لدين الله الفاطمي وكبار حاشيته فقد جاؤ ا إلى مصر عن طريق البحـر، وعنـدمـا اقترب موكبه من القاهرة أمر بإخلاء تلك السفن ووضعها على اليـابسـة ليتفـرج عليهـا الناس. ولم يأذن لأحد باستعمال تلك السفن بعد ذلك، وكان المعز يكافيء تلك السفن بذلك وفاق ما أوصلته سالما إلى مصر.

وأخـبر ني راوى هذه القصـة أنـه رأى تلك السفن المعـروضة على اليابسة وعـددهـا سبـع سفن طول كل سفينـة خمسـون ذراعا وعرضها سبعون ذراعا وقد ظلت تلك السفن في معارضها ثمانين عاما. والشخص الذى روى لي هذه القصة جاء إلى مصر سنة إحدى وأربعين وأربعمائة.

عندما وصل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر استقبله قائد من قواد الخليفة العباسي كان يتولى أمر مصر، ودخل القائد في طاعة المعز (تُرى من هو هذا الحاكم العباسي؟)، وسار المعز بجيشه في ذلك المكان، وسميت القاهره بهذا الاسم لأن الجيش الفاطمي القاهر نزل بها. منع المعز لدين الله عسكره من دخول مصر وشدد في المنع، حتى لا يتعرضوا للناس بالأذى.

وفي ذلك الفضاء الواسع بنى للمعز قصر وأمر أفراد حاشيته باتخاذ المنازل وصار الموضع مدينة عديمة النظير.

ولقد قدّرت عدد الدكاكين في مدينة القاهرة فوجدتها لا تقل عن عشرين ألف دكان، وكلها ملك خالص للسلطان، وأجرة أغلب هذه الدكاكين عشرة دنانير مغربية في الشهر، ولا تقل عن دينارين بحال من الأحوال.

أما الحمامات العامة ومحطات إقامة المسافرين والقصور فهي كثيرة لا تدخل تحت حصر، وكلها خالصة لسلطان مصر، ولا حق لأي إنسان فيها، إلا ما يبنيه الناس من خالص أموالهم. وسمعت أن بالقاهرة ثمانية آلاف منزل كلها من أملاك السلطان تؤجر شهريا للناس حسب رغبة المستأجر وتحصل منهم الأجور في آخر كل شهر دون قهر وتعد وظلم.

ويقع قصر الخليفة في قلب مدينة القاهره، وحوله فضاء واسع من جميع جوانبه ولا يسمح لأى شخص بالبناء بالقرب منه، ولقد ذكر المعماريون أن المساحة المحيطة بالقصر تعدل مدينة «ميافارقين»، ويقوم على حراسة القصر ليلا ألف حارس مسلح، خمسمائة فارس وخمسمائة راجل، وتظل أصوات الطبل والمزامير السلطانية تسمع في كل أنحاء المدينة منذ غروب الشمس حتى طلوع الفجر.

ويبـدو القصـر السلطـاني من خارج القـاهرة كجبل عظيم شديد الارتفاع شامـخ الشـرفات ، أما من داخل القاهرة فلا يكاد المرء يرى شيئا منه لأن حوائطه عالية جدا .

ويزعمون أن في القصر اثني عشر ألف خادم ، أما نساء السلطان وجواريه فلا يعلم أحـد عددهم إلا تخمينـا ـ ويقـولون إن تعداد كل من بالقصر يصل إلى ثلاثين ألف شخص .

وللقصر عشرة أبواب ولكل باب اسم على النحو الآتي :
باب الـذهـاب ـ باب البحـر ـ باب السـريح ـ باب الزهومة ـ باب السلام ـ باب الزبرجد ـ باب العيد ـ باب الفتوح ـ باب الزلاقة ـ باب السرية .

ويـوجـد تحت أرض القصـر باب سرى يخرج منـه السلطـان عنـدما يغادر القصـر. وللسلطـان قصـر آخـر خارج مدينـة القاهرة يتصل بهذا القصر الرئيسي بممرات سرية تحت الأرض، وبين القصرين نفق يربط بينهما .

وكـل خدم السلطـان وحـاشيتـه من المماليـك السـود والأروام ، أما رئيس الوزراء فيعين عادة من قبل السلطان ويشترط فيه الزهد والورع والأمانة والصدق والعلم والعقل، باختصار هو شخصية فذة جدا، ويتم اختياره بشكل دقيق جدا .

وشـرب الخمـر محرم تحريـما باتا، ولم يسمع أحد أن إنسانا جرأ على شرب الخمر في أيام الحاكم بأمر الله ، ولم يكن يسمح للنساء بالخروج سافرات ، كما أن تخمير الزبيب كان محرما ، بل إن الحاكم منع تداول الزبيب حتى لا يتخذ الناس منه الخمر، ولم يكن يجرؤ أى إنسان على شرب الخمور والأنبذة المسكرة .

صفة أبواب القاهرة

وللقاهرة خمسة أبواب: باب النصر ـ باب الفتوح ـ باب القنطرة ـ باب زويلة ـ باب الخليج. وليس للقاهرة سور لأن منازلها شديدة الارتفاع وهي بمثابة سور للمدينة بل أقوى وأرفع من الأسوار، فإن كل قصر بمثابة سور، وأغلب منازل القاهرة ذات خمسة أدوار وتوجد منازل ذات ستة أدوار وماء الشرب في القاهرة من النيل، يجلبه السقاؤون إلى البيوت، وكلما كانت آبار الماء قريبة من نهر النيل كانت أشد عذوبة، وكلما بعدت عن النيل كانت أشد ملوحة.

ويقولون إن في مدينتي القاهرة ومصر خمسين ألف جمل لجلب المياه إلى جانب السقائين الذين يحملون الماء على ظهورهم، ويستخدم السقاؤون القرب لحمل الماء، ويتجولون في الحوارى الضيقة التي لا تستطيع الجمال ولوجها.

ويرى الإنسان في قلب القاهرة كثيرا من الحدائق التي تتخلل المنازل وتسقى من مياه الآبار، وفي الحرم السلطاني حدائق كثيرة تصل إليها المياه عن طريق الطواحين المائية، ولم أر في حياتي أجمل من هذه الحدائق الناضرة المنتشرة في كل حواري القاهرة.

ورأيت في أعلى الأسطح كثيرا من الحدائق الجميلة بهجة للناظرين، وفي الوقت الذى كنت فيه في القاهرة كانت تؤجر قطعة الأرض التي مساحتها عشرون ذراعا في اثني عشر ذراعاً بخمسة عشر ديناراً مغربياً في الشهر. ويوجد في مثل هذه المساحة بناء ذو أربعة أدوار. وكان صاحب المنزل يسكن في أعلى العمارة ويؤجر الأدوار الثلاثة الباقية للراغبين من الناس. وقيمة الأجر الشهرى لكل دور خمسة دنانير مغربية في الشهر.

وأراد أحد السكان أن يستأجر الدور العلوى الخاص بصاحب المنزل على أن يدفع خمسة دنانير مغربية كل شهر، إلا أن صاحب المنزل رفض مع أنه لم

يسكن في ذلك الدور خلال العام إلا مرتين فقط.

وقصـور القـاهـرة نظيفـة منسّقـة كما لو كانت مبنية من الجواهر وليست من الطـين اللبن، وهي قصـور متبـاعدة عن بعضها الآخر بشكل منفصل بحيث أن أشجار أى بيت لا تتدلى على البيت الآخر، فإذا أراد الإنسان هدم بيته وإعادة عمارته لم يسبّب أذى لأى جار من جيرانه.

وإذا خرجت من القـاهـرة واتجهت إلى غرب المـدينـة، رأيت مجرى مائيـا عظيما يسمى الخليج. ويقال إن والد السلطان الحالي هو الذى أمر بحفره، وأوقف عليـه خراج ثلاثـمائة قرية من الخاصة السلطانية. ويسيل الخليج من مصر متجها إلى القاهرة ويغذى القصر السلطاني بالمياه اللازمة.

وقد أقيم على فم الخليج عمارتان تسمى الأولى «اللؤلؤة» وتسمى الثانية «الجوهرة». وللقاهرة أربعة مساجد جامعة، يؤمها الناس خاصة في الجمع، وهي الجامع الأزهر وجامع نور، وجامع الحاكم، وجامع المعز، ويقع جامع المعز خارج مدينة القاهره وعلى ساحل نهر النيل.

والمسـافـة بين مصـر والقـاهـرة أقل من ميل. ومصر في الجنوب والقاهرة في الشـمال، ويأتي النيـل من مصـر ويصـل إلى القـاهرة، وحدائق وريف المدينتين متصلة ببعضهما.

وفي فصـل الصيف تتحـول الصحـراء والـريف إلى بحـر عظيم من الفيضانات وتغطى المياه كل شيء.

عيد فتح الخليج

عنـدمـا يفيض النيـل ويبلغ ارتفـاع مياهه ثمانية عشر ذراعا عما كانت عليه خلال فصل الشتاء تقفل المصارف والنهيرات في كل أنحاء البلاد، يأتي السلطان

إلى فم الخليـج في أكمـل زينتـه ليفتح الخليج ويأمر بفتح بقية الخلجان الأخرى، وذلك يوم الزينة في القاهرة حقا. يسمى المصريون هذا اليوم يوم ركوب فتح الخليج.

وعندما يقترب موعد هذا اليوم، تنصب في فم الخليج خيمة ضخمة جدا بالغـة الـزينـة والأبهـة والجـلال. والخيمـة مصنـوعة من الحرير الرومي، ومطرزة بالـذهب، ومكللة بالجـواهـر، تقطـر الـزينـة من كل زاوية من زواياها، والخيمة منسقـة جدا بحيث يستطيـع خمسـمائة فارس أن يقفوا في ظلها، بكامل عتادهم، وأمـام الخيمـة منصة تزينها الأردية الطاووسية التي تتلون كل لحظة بلون ساحرى أخاذ وفوق المنصة مظلة هائلة.

وتجـرى الاستعـدادات العظيمة قبل ثلاثة أيام من ركوب السلطان، فيبدأ المشـرفـون على الخيـل السلطـاني في تدريب الخيل في الاسطبلات على ضجيج الطبول وفحيح الآلات النحاسية حتى لا تجفل الخيل يوم الركوب.

وقبيـل ركـوب السلطـان يصطف ألف فارس بخيلهم المسـرجـة بالسـرج الـذهبيـة والألجمـة المـرصعة بالجواهر الكريمة، وتتدلى من سروج الخيل لحائف ذات ألـوان بهيجـة. كل هذا أعـد بإتقـان وأستـاذيـة خاصة استعدادا لهذا اليوم العظيم. وعلى هذه اللحـائف المـدلاة يبرز اسم السلطـان مكتوبا بماء الذهب، وقـد بدا الفـرسـان على خيـولهم ثابتـين كالمـردة، كالجبال الراسية، شيء يثير في النفس الرهبة والجلال.

ويصطف خلف الفـرسـان فريق الجـمالـة على جمالهم العمانية الأصيلة في كامل زينتهم.

وخلف الجمالة يأتي فريق ثالث يمتطي البغال، وقد رصعت ركائبها بالجواهر الثمينة المرصعة.

ولو أردت وصف أنواع الزينة والأبهة والجلال والهيلمان في هذا اليوم لطال الأمر ولم يقف عند حد.

خلاصة القول إن جند السلطان يقف في هذا اليوم فوجا يعد فوج وقبيلا بعد قبيل.

ولكل قوم اسم وألقاب خاصة به وهيئة يمتاز بها عن غيره، ففوج يطلق عليه الكتاميون، وهؤلاء الجند من القير وان دخلوا في خدمة أجداد السلطان يوم كانوا بالمغرب والأندلس، وقد جاؤا إلى مصر في ركاب المعز لدين الله الفاطمي، وعددهم عشرون ألف فارس.

وفريق آخر يسمى البلطيان وهم جند من المغاربة سبقوه إلى مصر أيام الفتح وعددهم خمسة عشر ألف فارس.

وفريق آخر يسمى المصامدة وكلهم من الزنوج وموطنهم أرض المصامدة التي تحدثنا عنها وعددهم عشرون ألف فارس.

وفريق يسمى المشارقة، وجمهرتهم من الأتراك والأعاجم وسبب تسميتهم بالمشارقة تمييزا لهم عن العرب. وأغلب هؤلاء المشارقة مولود في أرض مصر واسمهم مشتق من الجهة التي قدم منها أجدادهم وهي المشرق. وعددهم عشرة آلاف فارس يمتازون بأجسام طويلة متناسقة.

وفريق يسمى عبيد الشراء يقولون إنهم من نسل مماليك السلطان، وعددهم ثلاثون ألف فارس.

وفريق يسمى البدو وهم أهل الحجاز وكلهم من الرماة بالسهام وعددهم خمسون ألف رام، كلهم يمتطون صهوات جيادهم.

وفريق يسمى القصريون (نسبة إلى القصر السلطاني) وهم راجلون وهم خليط من الجند، قدموا من كل الولايات السلطانية، ولكل طائفة منهم سلاح خاص مما يستعمله أهل ولايته، ولهم قائد عسكرى خاص بهم.

وفريق يسمى الزنوج، وكلهم يتمنطقون بالسيف وعددهم ثلاثون ألف محارب، وكل هذا العدد العظيم ممن ذكرنا من العسكر يعيشون في القاهرة على مائدة السلطان، ولكل فرد راتبه الشهرى المقرر على حسب منزلته ورتبته العسكرية، والسلطان يشدد على هذا العسكر ويديره في حزم وانضباط، ولا يسمح لأى فرد من هؤلاء بأخذ شيء من الرعية.

وفوق كل هذا العسكر هناك طوائف أبناء الأسر المالكة، الذين قدموا من شتى أقطار المعمورة للمشاركة في أعياد فتح الخليج، وهؤلاء لا يدخلون ضمن تعداد العسكر السلطاني.

فهؤلاء النبلاء قد أتوا من المغرب واليمن ورومية وصقلاب والنوبة والحبشة ولقد رأيت بينهم أبناء السلطان خسرو الدهلوى، في رفقة أمهم، كما رأيت بعض أبناء ملوك الكرج، وأبناء ملوك الديلم، وأبناء خواقين التركستان، فضلا عن طبقات مختلفة من أعيان العالم كالأدباء والشعراء والفقهاء. كل هذا الحشد الهائل يجتمع في القاهرة يوم ركوب السلطان لفتح الخليج، وكلهم ضيف

على المائدة السلطانية ولا يقل ما يصرف لكل نبيل من هؤلاء عن خمسين دينارا مغربيا في اليوم الواحد ولا عمل لكل هؤلاء النبلاء سوى السلام على الوزير الصدر عند ما يستقر به المقام يوم فتح الخليج .

هيئة فتح الخليج

في صباح اليوم الذى يتهيأ فيه السلطان لتشريف مراسيم الفتح يأتي عشرة آلاف أجير بهيئة مخصوصة ، ويلجون اسطبلات القصر السلطاني ، ويمسك كل رجل من هؤلاء مركبا من المراكب السلطانية ـ التي سبق وصفها ـ ويجر خلفه مائتي فرس أو بعير أو بغل كل مائة في إحدى يديه وهو عمل أتقنه هؤلاء الرجال من كثرة المران ، وتتقدمهم الطبول والمزامير . ويخرجون من بوابة القصر الضخمة إلى حيث يسلمون هذه الركائب إلى الفرسان خارج القصر وإذا انتهى حفل فتح الخليج أعاد هؤلاء الرجال المراكب السلطانية إلى مرابطها على نفس الهيئة السابقة . ولكل رجل من هؤلاء ثلاثة دراهم أجر عملهم هذا .

ويسير الموكب الجليل إلى الخليج ـ يتقدم الفرسان الموكب ، وخلفهم راكبو الجمال وفي آخر الموكب راكبو البغال .

ثم . . . ثم يهل الموكب السلطاني بجلاله وبهائه ويبدو موكبه من بعيد والحاكم الذى رأيته شاب كامل الرجولة في عنفوان الشباب ، أمرد من نسل أمير المؤمنين الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كث الشعر وقد جلس على بغلة عظيمة مطهمة ذات لجام وعدة متواضعة ، ولا أثر للذهب والفضة على أى جزء من أجزاء موكبه الجليل . وقد لبس قميصا شديد البياض وعلى رأسه عمامة طويلة ضخمة كما هي العادة في زى العرب واعتمر دُرَّاعَة ثمينة يقال إن قيمتها عشرة آلاف دينار، وقد أمسك بيده عصى عظيمة ثمينة .

ويسـير أمـام الحـاكم ثلاثـمائة رجل من الديالمة، وملابسهم محلاة بخيوط الذهب وهي من الحرير الرومي الموشى المنمنم، وقد شدّوا أوساطهم بحزم كبيرة كما هي عادة الرجال في مصر، وقد شرعوا الرماح في أيديهم ولفوا أيديهم في خرق كبيرة.

ويسـير بجـانب موكب السلطـان حامـل المظلة وقد امتطى جوادا، وفوق رأسه عمامة ذهبية اللون مرصعة بالجواهر، وقد لبس زيا سلطانيا كاملا تبلغ قيمته عشـرة آلاف دينـار ذهبي مغـربي. والمظلة التي يحملهـا المظـلي في غايـة البـداعة والجمال، مكللة بالجواهر الكريمة النادرة، وليس مع الموكب السلطاني لا راكب بقرب السلطان سوى حامل المظلة هذا.

ويسـير الـديالمة أمام الموكب السلطاني، وعلى يمين السلطان ويساره حملة المجامر التي تنبعث منها أرواح الند والعود والعنبر، يغذيها الخدم السلطاني بالنار والروائح الشديدة العبق.

وعادة الناس في مصر أنه كلما مر موكب السلطان بجماعة سجدوا له، ودعوا له بالنصر والدوام وطول العمر.

ويأتي خلف موكب السلطان موكب الوزير الأعظم وقاضي القضاة يحف بالموكب جمهور عظيم من العلماء وأركان الدولة.

وعندما يصل موكب السلطان إلى المنصة السلطانية المقامة على فم الخليج يلقـاه أحـد الفـرسـان ويقـود مركبـه إلى المنصـة، وبعـد ساعة من الراحة يقدم للسلطان آجرة خشبيه يقرع بها السلطان حائط الخليج إيذانا بافتتاحه رسميا.

ويسرع الناس إلى الخليج بالمساحي والزنابيل وسرعان ما يتحطم ذلك السد ويرتفع الماء ثم يشرع في الجريان من الفتحات المعدة له في أسفل الخليج، وترتفع الصيحات في جنبات المكان بالدعاء للسلطان مختلطة بزغاريد النساء وعبث الصبيان والصبايا.

ويجتمع حول الخليج خلق عظيم للفرجة والاستمتاع، وتقام الألعاب العجيبة ويكون أول من يعبر الخليج بعد فتحه زورق عليه جماعة من الخرس ويتفاءل المصريون بهم، ويخلع عليهم السلطان في ذلك اليوم ويتصدق عليهم بالأموال الكثيرة والعطايا الجزيلة.

ويحيط بقصر السلطان واحد وعشرون زورقا ترابط بصفة دائمة في مياه النيل القريبة من القصر، وطول كل واحد من هذه الزوارق السلطانية خمسون ذراعا، وعشرون ذراعا عرضا، وكلها زوارق محملة بنفائس الجواهر وحوائطها مغلقة بالحرير الرومي الثمين، وتظل تلك الزوارق في تلك المياه بصفة دائمة كالخيل في المرابط.

وللسلطان حديقة على بعد فرسخين من القاهرة تسمى «عين شمس» وتسمى الحديقة باسم عين هناك بهذا الاسم، ويزعمون أنه كان لفرعون مصر حديقة في نفس المكان.

ورأيت قريبا من حديقة السلطان في عين شمس بناء أثرياً قديماً مكوناً من أربعة صخور ضخمة، طول كل حجر منها كالمنارة وارتفاعها ثلاثون ذراعا، ورأيت الماء ينحدر من رأس كل عمود منها، ولا يعلم أحد مصدر تلك المياه.

كما رأيت في عين شمس شجرة البيلسان ويقولون إن والد السلطان الحالي أحضر بذرها من المغرب الأقصى وزرعت هنا.

ويقولون إن هذا النوع من شجر البيلسان لا يوجد في أى مكان آخر، وإذا زرع فإنه لا يكون بهذه الجودة، وإذا نجح فإنه لا ينبت بالدهن. وإذا كبر هذا النوع من شجر البيلسان وحان قطافه، فإن الناس تجذع أغصانه ويربطون على المكان المقطوع زجاجة تمتلىء بمادة صمغية تتسرب من الأغصان. وعندما يتم إفراغ تلك المواد في الأواني الزجاجية تيبس الشجرة، وتحمل أعوادها لتباع في المدينة، وهي أعواد سميكة، يخرج منها طعام يشبه اللوز.

حارات القاهرة

في القاهرة عشر محلات ويسمون المحلة حارة وحارات القاهرة هي: حارة برجوان - حارة زويلة - حارة الجودرية - حارة الأمراء - حارة الديالمة - حارة الروم - حارة الباطلية - حارة قصر الشوق - حارة عبيد الشراء - حارة المصامدة.

مدينة القاهرة تقع في مرتفع من الأرض، وفي شرق القاهرة جبل عظيم ولكنه ليس شامخا، بل هو عبارة عن حجارة وصخور غليظة هشة، وفي حافة القاهرة وبالقرب من الجبل يقع مسجد أحمد بن طولون، وهو مسجد مبنى على جانب مرتفع وله حائطان محكمان، لم أر أقوى منهما استحكاما، إلا في حوائط «ميافارقين».

وقد بنى المسجد أمير من أمراء العباسيين، كان يحكم مصر، ويقولون إنه في أيام الحاكم بأمر الله جد السلطان الحالي، جاء أبناء طولون صاحب المسجد وباعوا المسجد بثلاثين ألف دينار مغربي للحاكم بأمر الله، وبعد زمن عادوا يدّعون أنهم لم يدخلوا منارة المسجد في عقد البيع، وشرعوا في هدمها، فأرسل إليهم الحاكم بأمر الله أن قد بعتم المسجد لي فلم تهدمون المنارة، فقالوا نحن لم نبع المنارة وإنما بعنا المسجد، فأمر لهم الحاكم بخمسة آلاف درهم ثمن المنارة.

ويؤدي السلطان صلاته في مسجد ابن طولون خلال شهر رمضان وفي الجمع.

والسر في بناء القاهرة على مرتفع هو خشية طغيان النيل، وقد كان المكان الذى تقوم فيه القاهرة حجريا في بعض أماكنه ولكنها كسرت وسويت بالأرض، ويسمى ذلك المكان اليوم «العقبة»، وإذا شاهد المرء مدينة مصر من بعيد ظنها جبلا ومنازل القاهرة تتكون في بعض الأحيان من أربعة عشر دورا يعلو بعضها بعضا وهناك منازل من سبعة أدوار. وسمعت من بعض الثقاة أن أحد الأشخاص في مصر قد ربى عجلا صغيرا في سطح منزله المكون من سبعة أدوار، وزرع الحدائق والجنان في ذلك السطح، وكانت مهمة هذا الثور هو إدارة الطواحين المائية المنصوبة في سطح المنزل لرفع الماء إلى السطح وري الحدائق، ويوجد في هذه الحديقة المعلقة جميع الأشجار المثمرة كالنارنج والأترنج، والموز وغيره، كما توجد الورود والرياحين.

كما سمعت من أحد التجار المعتبرين أن في مصر بعض القصور التي تشتمل على غرف للإيجار تتسع الواحدة من هذه الغرف لسكن ثلاثمائة وخمسين شخصا ومساحة تلك الغرف ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا.

ورأيت في مصر أسواقا وأزقة ضيقة تظل فيها القناديل مشتعلة بشكل دائم لأن نور الشمس لا يصل أبدا إلى تلك الأسواق والأزقة، وهي أزقة لا ينقطع سير الناس فيها.

وفي مدينة مصر سبعة مساجد عدا تلك التي في القاهرة. ومجموع المساجد في مدينتي مصر والقاهرة خمسة عشر مسجدا، كلها تؤدى فيها صلاة الجمع ويقع في وسط السوق مسجد تسمى بوابته باب الجوامع، ويقولون إن عمرو بن

العاص هو الذى بناه عندما كان أميرا على مصر من قبل معاوية.

ولمسجد عمرو بن العاص أربعمائة عمود من المرمر، وعلى الحائط الذى تقع فيه القبلة والمحراب قطع مرمرية ناصعة البياض، وقد كتب على تلك الصفائح المرمرية جميع سور القرآن الكريم، بخط جميل يزري بخط ابن مقلة، وتحيط الأسواق بمسجد عمرو بن العاص، وتفتح أبواب المسجد على تلك الأسواق.

وفي المسجد حلقات درس دائمة، وقراء كثير ون، وذلك المسجد من معالم مصر البارزة، ولا يوجد أقل من خمسة آلاف شخص في المسجد في أى وقت من أوقات الليل والنهار، فساحات المسجد لا تخلو من طلاب العلم والغرباء والكتبة الذين يكتبون للناس الصكوك والقبالات.

وقد اشترى الحاكم بأمر الله الفاطمي هذا المسجد من أحفاد عمرو بن العاص، ويقال إن أحفاد عمرو بن العاص ذهبوا إلى الحاكم وشكوا إليه فقرهم وحاجتهم وأن المسجد يتعلق بجدهم، فإذا أذن لهم السلطان فإنهم يهدمونه ويبيعون أحجاره وأخشابه علهم يجدون ما يسد حاجتهم فرثي السلطان لحالهم واشترى منهم المسجد وأشهد كافة سكان مصر على تلك المبايعة.

وقد أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بإعادة ترميم مسجد عمرو بن العاص وأضاف عليه زيادات جميلة وعجيبة، وأمر أن يزين المسجد بقناديل فضية، وقد رأيت بعض تلك القناديل وهي ذات ست عشرة زاوية آية في الروعة والهندسة، ويكتفي بإضاءة جزء من تلك القناديل في الأيام العادية. فإذا كانت الأعياد أضيئت جميع تلك المصابيح فيسبح الجامع في بحر من النور، ويقولون إن زنة تلك المصابيح خمسة وعشرون قنطارا من الفضة، كل قنطار زنة مائة رطل وكل رطل زنة

مائة وأربعة وأربعين درهما فضيا. ويقولون إنهم عندما حاولوا إدخال هذه القناديل إلى المسجد لم يتسع لها أى باب من أبواب المسجد لعظمها، حتى هدموا أحد الأبواب توسيعا للمصابيح، ثم أعادوا الباب إلى مكانه الأول.

ويفرش مسجد عمرو بن العاص بحصر ذات عشر أطباق في إثر بعض وهي حصر ملونة تفرش بها أرض المسجد، ويضاء المسجد بأكثر من مائة قنديل كل ليلة، وتقع محكمة قاضي القضاة في هذا المسجد وهي بمثابة محكمة استئناف. ويقع في الجانب الشمالي من المسجد سوق يسمى «سوق القناديل» ورأيت في هذا السوق من الطرائف والتحف ما لم أره في أى سوق آخر في العالم ويوجد في هذا السوق نفائس من كل أقطار الأرض.

ورأيت في داخل هذا السوق آلات دقيقة الصنعة، ومن بين ما رأيت حُقا يشتمل على مرآة ومشط ومقص وغيره من الآلات الدقيقة العجيبة الصنع، ورأيت في هذا السوق نوعا من البلور آية في الجمال، ورأيت صناعا ينحتون ذلك البلور بخفة ومهارة تستوقفان النظر، والبلور مجلوب من المغرب ويقولون إنه يوجد في بحر القلزم القريب من مصر نوع من البلور اللطيف الشفاف يفوق هذا البلور المغربي.

ورأيت في سوق القناديل نوعا من العاج يجلب من زنجبار يزيد وزنه على مائتي رطل.

كما شاهدت جلد بقرة جلب من الحبشة كأنه جلد نمر، ويصنعون منه الأحذية.

كما شاهدت نوعا من الدجاج المنزلي يجلب من الحبشة أيضا، وهو كبير الحجم، تغطيه نقاط بيضاء، وله عرف كأنه عرف طاووس، ويكثر جني العسل

في مصر كما يكثر بها السكر.

في اليوم الثالث من شهر «دى» من شهور العجم سنة أربعمائة وخمس عشرة رأيت في يوم واحد هذه الكمية من الفواكه والمشمومات وهي ما يلي:

ورد أحمر ـ ورد بنفسجي ـ نرجس وهي من المشمومات التي لا توجد في هذا الوقت من السنة في إيران.

كما شاهدت ترنجا ونارنجا وليمونا وحمضيات، وتفاحا وسفرجل ورمانا وخوخا، وبطيخا وموزا وزيتونا، وحمصا أخضر، ورطبا وعنبا، وقصب سكر وباذنجان، وقرعا (الدّباء) ولفتا وكرنبا، وفولا أخضر (باقلاء) وخيارا، وبصلا أخضر، وثوما أخضر، وجزرا، وكل ما يخطر وما لا يخطر على البال من أنواع الفواكه والرياحين مع أن بعضها شتوى وبعضها ربيعي وبعضها صيفي، رأيتها كلها في يوم واحد في مكان واحد في مصر. فبالله عليك كيف يتفق هذا؟

إن البعض لا يصدق هذه الرواية ويدخلها في باب التزيد ولكن ما كتبت إلا ما رأيت بعيني ولا غرض لي في الكذب. وبعض ما سمعته وكتبته إنما عهدته على من روى لي ذلك، فإن مصر بلد واسع فيه كل الأجواء والمناخات تتراوح بين الطقس البارد والطقس الحار، وكل ما ينبت في هذه الأجواء يجلب إلى مصر ويباع في أسواقها.

ويصنعون في مصر خزفا بالغ الشفافية والرقة. حتى إن المرء إذا وضع يده في أحد جوانب الخزف رآها من الجانب الآخر من شدة شفافية الخزف، ويتخذون من هذا الخزف الأقداح والأطباق والظروف، ويلونون ذلك الخزف بألوان جميلة فيبدوا كذيل الطاووس فيه كل الألوان الجذابة.

ويصنعـون من ذلـك الخـزف أباريق يعلو صفاؤ ها على صفاء الزبرجد، ويبيعون تلك الأباريق وزنا كأنها الذهب.

تمتد مدينة مصر على طول ساحل نهر النيل، وتحف بالنيل متنزهات ذات مناظر جميلة، ويتخذ بعض الناس منازل تطل على النيل ويجلبون الماء إلى منازلهم بحبال يدلونها في النيل القريب منهم. أما المنازل البعيدة عن النهر فإن السقائين يتولون جلب الماء إليها بالجمال حينا وبالقرب محمولة على ظهور السقائين حينا آخر.

ورأيت نوعا من القرب في مصر يتسع أحدها لثلاثين لترا من الماء، وحكى لي أحدهم أن بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قربة تكريها على السقائين كل قربة بدرهم في الشهر، على أن تكون القربة في حال جيدة حين إعادتها.

وتقع أمام مدينة مصر جزيرة في قلب النيل فيها مسجد تحيط به الأشجار الغناء وفرعا النيل المواجهان لمصر كبيران في سعة نهر جيحون، وهما فرعان هادئان يسيلان في بطء وجلال.

ويربط مصر بالجزيرة التي تقابلها جسر مكون من ثلاثين قطعة خشبية في شكل زوارق، وتسمى الجهة الواقعة في الضفة الأخرى «الجيزة». ولا جسر يربط بين مصر والجيزة إنما يعبر إليها على الزوارق التي تغدو وتروح إلى الجيزة وفي مصر عدد من السفن والزوارق لا يوجد مثلها في بغداد أو البصرة كثرة.

ويشتهر الباعة في مصر بالصدق في المعاملات، وإذا كذب أحد الباعة على المشترى فإن المحتسب يعاقب البائع بأن يأمر بإركابه على جمل وإعلام جميع الناس بواسطة منادٍ في يده جرس يعلن على الناس سوء فعلته، ويرغم البائع

على الاعتراف بأنه ظلم المشترى بأن باع له بأكثر من السعر الرسمي المحدد. ويكرر المنادى أن هذا جزاء كل من تسول له نفسه تطفيف الكيل وبخس الموازين.

وفي أسواق مصر والقاهرة يوفر الباعة الأوعية المطلوبة للشارين، فلو اشترى الإنسان زجاجا أو خزفا أو ورقا أو أى بضاعة فإنه لا يحتاج أن يحمل معه وعاء لذلك بل البائع يقدم له كل ذلك.

ويستخرج زيت الاستصباح في مصر من الفجل واللفت ويسمونه الزيت الحار والسمسم قليل في مصر وزيته عزيز لا يبعثر في الاستصباح، وزيت الزيتون كثير ورخيص، وزيت الفستق أغلى من زيت اللوز، ويباع لب اللوز بدينار واحد للرطل.

والتجار في مصر يمتطون الحمير من بيوتهم إلى دكاكينهم وهي حمير فارهة رهواء. ويرى المرء كثيرا من المكارين قد أعدو حميرهم للإيجار، وهي كثيرة في كل زقاق ومنعطف. ويقولون إن خمسين ألف حمار يؤجر كل يوم في مصر. ولا يسمح لغير الجنود والعساكر بامتطاء الجياد.

ورأيت في مصر كثيرا من الحمير البلقاء الشبيهة بالخيل بل هي ألطف من الخيل. وتجار مصر في غاية الغنى عندما كنت في مصر.

وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة وأنا في مصر رزق السلطان بغلام، فأعلم المنادى الناس بالبشرى وطلب منهم تزيين المدينة والأسواق. وأخذت المدينة والأسواق زينة بشكل لا يدركه الوصف، وقد لا يصدق بعض الناس مبلغ تلك الزينة.

واحتفالا بهذا المولود السلطاني فإن البزازين والصرافين وغيرهم من التجار قد زينوا متاجرهم بالذهب والجواهر النفيسة، وأنواع الأقمشة الفاخرة من كل لون والثياب الحريرية الرومية والمقصبة. وقد عمت الفرحة قلوب المصريين وشاركوا سلطانهم الفرح والابتهاج، لأن أهل مصر يجلون هذا السلطان الذى بسط الأمن والأمان والعدل بينهم، فلا يخشى التاجر على ما له من اعتداء معتد لا من قبل الحكومة ولا من قبل غيرها من باب أولى.

ولقد رأيت في مصر والقاهرة من ألوان غنى الأغنياء ما لو بسطته لما صدقه الأعاجم من أهل فارس ولظنوا بي الظنون.

وثروة أهل مصر لا تقع تحت الحصر، والرفاهية التي رأيتها بين المصريين لم أر مثلها أو قريبا منها في أى مكان في العالم.

ولقد رأيت في مصر أحد أغنياء النصارى وكان في غاية الغنى، يملك أسطولا من السفن تجول في البحار وتصب الأموال في خزائنه، ولا يعرف أى إنسان حدود ثروته وغناه. وصادف أن النيل لم يف ذلك العام وغلا سعر المواد الغذائية وخيم شبح الجوع على وادى النيل، فاستدعاه الوزير الأعظم، وأخبره بجلية الأمر، وكيف أن خاطر السلطان متغير مما ألمّ برعيته من الجوع، وسأله الوزير عن القدر الذى يستطيع تقديمه من المواد الغذائية إن بنقد وإن قرضا؟ فأجاب التاجر النصراني: أدام الله الوزير إنني بفضل الله ثم بفضل سلطان مصر أملك من الغلال ما لو استمر القحط ستة أعوام فأنا على استعداد لإطعام أهل مصر حبا في السلطان.

وللقارىء أن يتصور عدد سكان مصر في هذا العام. فأنا على يقين أن سكان نيسابور يعدلون خمس سكان مصر، وكل من يعرف يسيرا من الحساب

يستطيع إدراك ما في حوزة هذا النصراني من المال الكثير. وما هذا إلا نتيجة الأمن والأمان والعدل الذى يتقلّب المصريون في أكنافه.

ولقد رأيت في مصر مجمعا تجاريا يقال له (دار الوزير) لا يبيعون في هذا المجمع الكبير سوى قصب السكر ولا شيء آخر، وفي الدور الأرضي طائفة من دكاكين الحياكة وفي أعلى الدور مكتب المشرف على الحائكين، صعدت إليه وسألته كم يتقاضى هؤلاء العمال كل عام؟ فأجاب المدير يتقاضون عشرين ألف دينار مغربي سنويا مع أن جزءا من الدور عاطل عن العمل بسبب الترميم، ويصرف على ترميم ذلك الجزء الخرب ألف دينار مغربي كل شهر يعني اثني عشر ألف دينار مغربي سنويا. ويقولون إنه يوجد في مدينة القاهرة مجمعات تجارية أكبر من هذا المجمع وعدد هذه البيوت التجارية يربو على المائتين.

المائدة السلطانية

اعتاد سلطان مصر أن يدعو الناس إلى مائدته مرتين في العام. وتتم الدعوة في عيدى الفطر والأضحى. وتشمل الدعوة الخاصة ويستقبلهم السلطان في قصره، والعامة ويدعون في قصور أخرى.

ومع أني سمعت عن هذه الموائد قصصا وأخبارا كثيرة إلا أني عزمت أن أتحقق من الأمر بنفسي.

وقد قامت بيني وبين أحد كتّاب السلطان صداقة حميمة. فقلت له ذات يوم: «لقد رأيت حفلات ملوك وسلاطين العجم مثل السلطان محمود الغزنوى وولده السلطان مسعود بن محمود، وهما ملكان عظيمان كما تعلم، ويضرب ببلاطهما وما فيه من الأبهة والنعمة المثل. والآن أريد أن أشاهد مجلس أمير

المؤمنين المستنصر بالله الفاطمي» . فكلم صديقي الحاجب السلطاني ويسمونه في مصر صاحب الستر .

وفي نهاية شهر رمضان سنة أربعين وأربعمائة وفي ليلة عيد الفطر بدأت الاستعدادات للمائدة السلطانية ، وذهب السلطان لأداء صلاة العيد ، وعاد إلى القصر ليرأس المائدة السلطانية . وكنت هناك ، فقد أدخلني الحاجب من بوابة القصر الرئيسية وولجت القصر ومررت في طريقي بقصور وممرات وأواوين لو استطردت في وصفها لطال الوصف إلى غير نهاية .

رأيت في طريقي اثني عشر قصرا يؤدى كل منها إلى الآخر ، وكل قصر يفوق الآخر ، بمحتويات لا تصدق ، وسعة صوالين تلك القصور نحوا من مائة أرش في مائة أرش وكلها مربع المساحة .

وأخيراً وصلت إلى صالون قدسي جليل مربع الشكل ستين ذراعا في ستين ذراعا وفي صدره عرش ممرد يحتل صدر المكان بارتفاع أربعة أذرع عن سطح الأرض وكرسي العرش من الذهب الخالص . وعلى الحائط في أعلى العرش صورة ميدان صيد تتعارك فيه الفرسان والطرائد وكلاب الصيد ، والصورة تكاد تنطق ، وأكاد ألم ثيابي حتى لا تصاب أطرافي بدماء الطرائد أو تدوسني الخيل وخلف كرسي العرش مباشرة لوحة عليها كتابات بارزة واضحة .

أما بسط الصالون فحريرية بالغة النعومة حتى ليعجب المرء كيف يمكن للأقدام أن تثبت عليها . وقد علتها ألوان لا تكاد تحصرها العين ، وتحيط بهذا الصالون القدسي شبابيك ذهبية تكاد تذهب بالأبصار ، أما أنا فأعترف بعجزى عن وصفها . وخلف العرش مباشرة مدخل جليل بدرجات ذهبية ، أما العرش الذهبي فلا يقدر بشر على وصفه .

ويقولون إن مقادير السكر التي تستهلك في يوم العيد هذا تبلغ خمسين ألف رطل.

أما هيئة المائدة السلطانية فتصل حد الإعجاز، تزين المائدة شجرة عملاقة شبيهة بشجرة الأترنج، وجميع أغصانها الكثيفة وحملها من الأترنج عبارة عن قطع من السكر، ويحف بالشجرة ويعلوها ويجاورها ويرقد بين يديها آلاف من الصور والتماثيل الغريبة العجيبة وكلها من السكر الخالص، حقا إن هذا الشيء عجاب.

ويقع المطبخ السلطاني خارج القصر، ويقوم على خدمته خمسون خادما بصفة دائمة، ويربط المطبخ بالقصر نفق تحت الأرض ويحملون إلى القصر كل يوم حمل أربعة عشر بعيرا من الثلوج لتبريد المياه السلطانية.

كما أن للأمراء من خاصة السلطان نصيبا من هذه الثلوج، كما أن عامة أهل مصر إذا احتاجوا إلى الثلج للدواء أو مداواة مرضاهم فإن المطابخ السلطانية تؤمن لهم الكميات المطلوبة.

وكذلك تتوافر في القصر السلطاني جميع أنواع الأشربة والأدوية تمنح لكل من يطلبها من الناس. وكذلك الدهون والمراهم مثل زيت البيلسان وغيره، مهما طلب الناس منها فإنهم يحصلون عليها دون تأخر أو اعتذار أو مطل.

وقد بلغ الأمن وفراغ بال المصريين من وساوس اللصوص حدا حمل البزازين والصيارفة على ترك دكاكينهم مفتوحة. وكانوا يكتفون بوضع غطاء خفيف على أماكنهم أثناء انصرافهم للصلاة أو لقضاء الحاجة. ومع ذلك فلا تمتد يد إلى بضائعهم. كان أحد اليهود يقيم في مصر وهو من كبار تجار

المجوهرات، وكان من المقربين (١) للسلطان وكان في غاية الغنى والوجاهة، وكان يؤمن احتياجات القصر من المجوهرات واعتدى عليه جند السلطان يوما وقتلوه. وعندما خاف جند السلطان من غضبه وانتقامه ركب عشرون ألف فارس من أولئك الجند، واتجهوا إلى قصر السلطان، طلبا للشفاعة والعفو، وعم الهرج والمرج بين سكان القاهرة، وظل ذلك العدد الكبير من الجند بباب قصر السلطان إلى أن انتصف النهار. فأطل عليهم أحد حجاب القصر قائلا: أيها الجند السلطان يسألكم: (هل ما زلتم في طاعته أم لا؟ فأجابوا بصوت رجل واحد: نعم نحن عبيد السلطان وطوع بنانه. ولكنا ارتكبنا خطأ ونخشى عقاب مولانا السلطان. فطمأنهم الخادم أن السلطان قد عفى عنهم، وأن عليهم أن يعودوا إلى معسكرهم فتفرقوا.

واسم اليهودي المقتول أبو سعيد، وكان له ابن وأخ، ويقال إن مال اليهودى كان لا يقع تحت حصر، ولا يعلم مقداره إلا الله، ويقولون إن اليهودى كان يخبيء ثلاثمائة كيس من الفضة في أعلى عمارته.

وكتب أخو اليهودى خطابا إلى السلطان يعرض فيه التنازل عن مائتي ألف دينار مغربي من مال أخيه المقتول مخافة أن يتعرض ما بقي من المال للنهب والسلب، فأرسل السلطان الخطاب إلى خارج القصر وأمر بتلاوته على الناس، ثم أمر به فمزق، وقال مخاطبا لأخ اليهودى: كن مطمئنا وارجع إلى منزلك آمنا، فلا يستطيع أحد أن ينالك بأذى، وأنا لست طامعا في مال أخيك أو في مالك.

وبعث السلطان لأخ اليهودى مالا كثيرا استرضاء له.

---

(١) ربما كان هذا اليهودى هو أبو سعد سهل بن هارون التسترى، كان تاجرا يهوديا وكان مولى أم المستنصر الفاطمي، وهي أمة سوداء اشتراها الظاهر واستولدها المستنتصر، فلما أفضت الخلافة إليه استدنت أمه أبا سعد ورقّته إلى درجة عليّة، وصار هو المتصرف في شؤون البلاد حتى أصبح الوزير الفلاحي «صدقة بن يوسف» يأتمر بأمره *خطط المقريزي*، ج ٢، ص ١٧٠.

ولقد لاحظت أنه في الشام وحتى مدينة القيروان، توجد أعداد كثيرة من المساجد يتولى الإشراف عليها وكيل السلطان في كل مدينة، وهذا الوكيل يشرف على شؤون المساجد فيؤمن لها الزيوت والمصابيح والأنواع من الفرش، ويصرف رواتب الأئمة والقوّام والمؤذنين والفراشين وغيرهم كل شهر.

وكتب والى الشام ذات سنة خطابا إلى وكيل السلطان يقترح فيه تبديل الاستصباح من الزيت الجيد إلى الزيت الحار، وهو رخيص ويستخرج من الفجل واللفت. فأجابه وكيل السلطان: أنت لست وزيرا وإنما عليك تنفيذ ما يطلب منك. والأمور المتعلقة ببيوت العبادة لا يجب تغييرها من باب التوفير، والتبديل في هذه الأمور غير جائز.

ويتقاضى قاضي القضاة ألفي دينار مغربي كل شهر، ويتقاضى القضاة الآخرون كل حسب رتبته، ورواتب القضاة في مصر عالية حتى لا يطمعوا فيما بين أيدى الناس ويعطلوا الحقوق والحدود، ويعمدوا إلى ظلم الناس.

الاستعداد للحج

وجرت العادة في مصر أن يعلم الناس في منتصف شهر شعبان بالاستعداد للحج، فيقرأون على الناس في المسجد توجيهات السلطان، ويخبرونهم أن موسم الحج قد أظلهم، وأن قافلة الحجيج السلطانية ستتحرك يوم كذا من مكان كذا.

فإذا كان شهر رمضان كرّر المنادى وخطباء المساجد هذا المرسوم السلطاني على أسماع الناس.

ويبدأ الاستعداد للحج في غرة شهر ذى القعدة، فإذا انتصف الشهر خرج من يريد الحج من المصريين واجتمعوا في مكان معين.

ويبلغ ما يصرف للعلائف السلطانية نحوا من ألف دينار مغربي، عدا عشرين دينارا تصرف يوميا لكل من في القافلة من الحجاج. ويصل الركب إلى مكة خلال خمسة وعشرين يوما.

ويظل الركب في مكة المكرمة عشرة أيام ومجموع الأيام التي يستغرقها المحمل من القاهرة إلى مكة - ثم يعود إلى القاهرة - ستون يوما، وهذا يعني

ستون ألف دينار قيمة العلائف فقط، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يتقاضاه كل شخص يوميا أدركنا مدى الخرج الذى ينفق في هذا الموكب السلطاني ولم أتعرض للجمال والبغال والخيول التي تنفق خلال هذه الرحلة الشاقة.

الحجـة الثانيـة

في سنـة تسـع وثـلاثـين وأربعـمائـة قرئ سجـل السلطان على الناس في المساجد، وقد جاء فيه أن أمير المؤمنين يأمركم شفقة عليكم بعدم الذهاب إلى الحـج في هذا العـام ، لأنه عام قحط وشدة حلت بالحجاز، وهلك خلق كثير من الشدة، وعليه فإنه ليس من المصلحة التوجه إلى الحج .

وقد امتثل الحجاج لأمر السلطان فلم يحجوا ، ولكن السلطان أرسل كسوة الكعبة كعادته فإنه يرسل للكعبة كسوتان خلال كل عام .

وقـد أرسلت الكسـوة عن طريق بحـر القلزم ، وقد رافقت الكسوة وذهبت إلى مكـة . غادرت القـافلة المكلفـة بإيصـال الكسـوة من مصـر في غرة شهـر ذى القعـدة ، وكنت مع القـافلة . وصلنـا إلى بحر القلزم ، وركبنا الباخرة وبعد خمسة عشـر يومـا وصلنـا إلى مينـاء الجـار على ساحل الحجاز، ومن «الجار» اتجهنا إلى المدينة فوصلنا بعد أربعة أيام .



صفة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم

تقع المدينة في حافة الصحراء، وأرضها رطبة ذات ملوحة، وماؤها عذب إلا أنه قليل، وتكثر فيها أشجار النخيل، وتقع قبلة مسجد المدينة نحو الجنوب ومساحة مسجد الرسول ﷺ تعادل مساحة المسجد الحرام، ويقع قبر الرسول بجانب المنبر، وإذا اتجهت إلى القبلة فإن القبر يكون على يسارك. أما عندما يقف الخطيب على المنبر فإن القبر الشريف يكون على يمينه.

والقبر الشريف بناء مخمس الشكل، وعلى القبر خمسة أساطين تحنو على القبر، ويربط بين الأبواب الخمسة درابزين يحول بين المرء والولوج إلى القبر الشريف، وعلى طول الدرابزين من الأعلى غطاء مشبك يمنع الطيور من تلويث القبر.

وبين القبر والمنبر مساحة تسمى الروضة، وهي روضة من رياض الجنة كما قال الصادق الأمين رسول الله ﷺ «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

ويزعم الشيعة أن قبر فاطمة الزهراء عليها السلام يقع في تلك الروضة. وللمسجد باب يؤدي إلى خارج المدينة في الجهة الجنوبية، وقبر حمزة بن

عبدالمطلب رضي الله عنه في جنوب المدينة. ويسمى المكان قبور الشهداء.

ولقد أقمنا في المدينة يومين فقط، ولما خفنا فوات الحج عجلنا بالخروج إلى مكة، ومكة تقع شرق المدينة، وعلى بعد منزلين من المدينة رأينا جبلا ذا مضائق شبيهة بالوديان ويسمى المكان «ذو الحليفة» وهي ميقات حاج الشام ومصر والمغرب، والميقات هو المكان الذى يجب على الحاج أن يحرم منه.

وصلنا مكة المكرمة في السادس من شهر ذى الحجة، عند باب الصفا، وقد أصاب مكة قحط أسود، حتى بيعت أربع قطع من الخبز بدينار نيسابورى وخرج المجاورون من مكة بحثا عن الطعام، ولم يأت الحجاج من أى مكان.

وكان يوم عرفة يوم الأربعاء، فصعدنا بعون الله تعالى إلى عرفة، وأدينا مناسك الحج.

بعد الفراغ من المناسك بقينا في مكة يومين فقط، وشاهدت كثيرا من الناس يتهافتون من شدة الجوع والحاجة، وغادر مكة المكرمة كثير من الناس، وتفرقوا في البوادى والجبال بحثا عما يسد الرمق.

وسوف لا أتحدث عن مكة في هذه المرة، بل سأرجيء الحديث عنها إلى مرة أخرى، فقد أتيح لي فيها بعد الإقامة بمكة ستة أشهر، وسأشرح ما رأيت بالتفصيل.

غادرت مكة واتجهت إلى مصر فوصلتها بعد خمسة وسبعين يوما. وفي هذه السنة سنة أربعين وأربعمائة جاء إلى مصر من الحجاز خمسة وثلاثون شخصا فأكرمهم السلطان وكساهم وأجرى عليهم الأرزاق لمدة عام كامل وكان هؤلاء

الحجازيون في غاية الجوع والعرى.

ثم هطل الغيث بأرض الحجاز وكثر الطعام وسمن الظهر، فأمر السلطان بإعادتهم إلى بلادهم ووصلهم بصلات طيبة وكساهم.

وفي شهر رجب سنة أربعين وأربعمائة خرج منادى السلطان مرة أخرى يحذر الناس من عواقب القحط الذى ما زال سائدا بأرض الحجاز، وأنه ليست من مصلحة المسلمين أداء فريضة الحج هذا العام أيضا.

وفي هذا العام أيضا امتثل المصريون لأمر السلطان فلم يحجوا.

أما ما اعتاده السلطان من إرسال كسوة الكعبة وصلة خدم الكعبة وأمراء الحرمين الشريفين، وكذلك راتب أمير مكة، فإن السلطان لا يقطع هذه العادة تحت أى ظرف كان.

وراتب أمير مكة من قبل السلطان هو ثلاثة آلاف دينار، وفرس وخلعة فاخرة يحملها إلى الشريف كل عام رسول سلطاني خاص.

وفي هذه السنة وقع اختيار السلطان على شخص يدعى القاضي عبدالله، وهو أحد قضاة الشام، فقد كلفه السلطان بأداء هذه المهمة، فسافرت في صحبته. وسافرت مرة أخرى عن طريق بحر القلزم، وصلت بنا السفينة إلى ميناء «الجار» في الخامس من شهر ذى الحجة. وكان الحج على الأبواب فاكتريت جملا بخمسة دنانير وعجلت إلى مكة.

في الثامن من شهر ذى الحجة وصلنا مكة وأديت مناسك الحج بعون الله وتوفيقه.

وسمعت أنه في حج هذا العام جاءت من المغرب قافلة كبيرة من الحجاج ولما زارت القافلة المدينة المنورة وقع بين أفرادها وبين مجموعة من الأعراب خلاف على أجر الخفارة، ووقع بين الفريقين قتال عظيم، وقتل من حجاج المغرب أكثر من ألفي حاج، ولم يكتب للأحياء من تلك القافلة المغربية العودة إلى بلادهم.

وفي هذا العام أيضا حج قوم من خراسان عن طريق الشام ومصر، ووصلوا إلى المدينة عن طريق البحر، وكان الوقت قد ضاق بهم للحاق بالحج، فقد أدركهم اليوم السادس من شهر ذى الحجة بالمدينة المنورة، وبينهم وبين مكة مائة وأربعة فراسخ، فاتفقوا على أن يخرج كل خراساني أربعين دينارا، وجاء إليهم الأعراب بجمالهم السريعة وتعهدوا بأن يوصلوهم إلى عرفة خلال يومين ونصف اليوم وأخذ الأعراب النقود من الخراسانيين وشدوا كل رجل على بعير، وخرجوا من المدينة على هذه الهيئة العجيبة.

وفي عرفات اكتشف الخراسانيون أن اثنين من أصحابهم قد ماتا، أما الأربعة الباقون فكانوا على وشك الموت، فلم يستطيعوا الوقوف على أرجلهم أو التحدث، ويقول الخراسانيون إنهم توسلوا إلى هؤلاء الأعراب طوال الطريق أن يرأفوا بهم ويأخذوا الذهب هانئين حلالا بلالا، ولكن الأعراب لم يعير وهم آذانهم، وظلوا يلهبون ظهور الإبل بالسياط. وقد حج هؤلاء الأربعة وعادوا إلى بلادهم عن طريق الشام.

أما أنا فبعد أن فرغت من مناسك الحج عدت إلى مصر بحجة أن لي بعض الكتب في مصر ولا بد من جلبها. وإن كنت قد نويت في قلبي أن لا أعود إلى مكة وسافرت في ركاب أمير المدينة المنورة، الذى سافر هذا العام إلى مصر، لأن له لدى السلطان مخصصات سنوية، ولأنه من نسل الحسين بن علي صلوات الله عليهما. وقد ركبت مع الأمير باخرة إلى مدينة القلزم، ثم رافقته من القلزم إلى مصر.

وبينما أنا في مصر سنة أربعين وأربعمائة جاء خبر عصيان ملك حلب، وأنه خلع طاعة سلطان مصر، وملك حلب هذا أحد مماليك السلطان، وقد حكم آباؤه حلب باسم سلطان مصر.

وقد كان للسلطان خادم يدعى عمدة الدولة وكان هذا الخادم زعيم جماعة في مصر تدعى «المطالبة» وصفة هذه الطائفة هي البحث عن الكنوز في مدافن الفراعنة وقبورهم المنتشرة في صعيد مصر، وهذه القبور الفرعونية يؤمها خلق كثير من المغامرين من المغرب والشام ومختلف أنحاء الديار المصرية ويصرفون أموالا كثيرة ويواصلون الليل بالنهار في البحث عن هذه الكنوز الأسطورية وكثيرا ما كانوا يعثرون على بعض الكنوز، والقاعدة أن كل من يكتشف شيئا من هذه الكنوز فلا بد أن يؤدى الخمس للسلطان، ويحتفظ بالباقي.

الخلاصة أن سلطان مصر بعث «عمدة الدولة» هذا إلى ولاية حلب وأعده إعداداً عظيماً وجهزه بكل ما يحتاج إليه الملوك من أسباب الأبهة والهيلمان وأرسل معه حاشية ملكية كبيرة.

وعندما وصل «عمدة الدولة» إلى حلب ونشب القتال بينه وبين ملك حلب قتل «عمدة الدولة».

وكان «عمدة الدولة» هذا قد خلف في مصر أموالا عظيمة كانت من الكثرة أن العمال ظلوا ينقلونها من مخازنها إلى مخازن السلطان مدة شهرين وكان من بين تركة «عمدة الدولة» ثلاثمائة جارية حسناء، كان بعضهن تقيم في حرمه الخاص.

وقد أمر السلطان أن لا تمتد يد أحد إلى الجوارى بسوء، وأن يخيرن، فمن أرادت منهن الزواج زوجت ممن تحب، ومن أرادت الانضمام إلى حرم السلطان

ضمت، ومن أرادت البقاء فيها أعطاها «عمدة الدولة» بقيت ولا سلطان لأحد عليهن.

وعندما قتل «عمدة الدولة» في حلب خاف ملك حلب عاقبة ذلك، وخشي أن يبعث له السلطان بجيش لا قبل له بدفعه. فبعث زوجته وفي رفقتها طفله الصبي البالغ سبعة أعوام وأرسل معهما كثيرا من الهدايا والتحف للسلطان طالبا عفو السلطان عنه.

وعندما وصل وفد ملك حلب ظل شهرين لا يسمح له بالمثول بين يدى السلطان ولم يقبل السلطان هدايا ملك حلب، حتى شفع القضاة وأئمة مصر لدى السلطان، وتوجهوا إلى بلاطه ملتمسين الشفاعة والعفو وقبول هدايا ملك حلب، فعفا السلطان عن ملك حلب، بعد أن تعهد بالطاعة والولاء وعاد الوفد الحلبي إلى حلب محملا بالخلع السلطانية.

من جملة الأمور العجيبة والغريبة التي رأيتها في مصر هو أن الإنسان يستطيع في أى فصل من فصول السنة أن يجد أى نوع من الثمار والأشجار، ويستطيع أن يزرع تلك الأشجار في حديقته، وسواء كان شجرا مثمرا أو شجرا لا ثمر له، بل من أشجار الزينة.

والسبب في هذا أنه يوجد في مصر متخصصون في شؤون الزراعة، يربونها في مشاتل صغيرة، ويحيطون هذه النباتات بالأجواء المطلوبة لنموها من حيث الماء والهواء ودرجة الحرارة ونسبة الرطوبة.

فإذا أراد الإنسان أى نوع من الأشجار ذهب الحمالون، وجلبوا هذه المشاتل وثبتوها في الأرض وأحاطوها بالجو المناسب لنمائها، وهذا الشيء لم أره في مكان في العالم سوى في مصر.

حجة المؤلف الرابعة

والآن أشرح لكم كيفية عودتي إلى زيارة مكة شرفها الله تعالى :
أدّيت صلاة عيد الأضحى في القاهرة، وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ركبت سفينة كانت في طريقها إلى الصعيد الأعلى، والصعيد الأعلى يقع في جنوب مصر، وهو جزء من ولاية مصر وتقع أكثر مدن الصعيد على حافة النيل وإذا أردت الحديث عن ذلك الريف العظيم فإن الحديث سيطول.

وصلنا إلى مدينة يقال لها «أسيوط» يستخرج منها الأفيون، وهو يؤخذ من بذر الخشخاش، وهي حبوب سوداء، فإذا زرعت خرج منها ما يشبه مادة القطن بياضا، فيدقون ذلك البذر فيخرج منه سائل أبيض مثل اللبن فيجمعونه ويجففونه وهو الأفيون. وبذر الخشخاش دقيق كأنه الكمون.

وينسجون في أسيوط عمائم من صوف الغنم، وهي عمائم جيدة لم أر مثلها في العالم، والأصواف الناعمة التي يفاخرون بها في الولايات العجمية ويسمونها المصرى كلها من صعيد مصر الأعلى هذا. لأن مصر بالذات لا توجد بها مناسج للصوف.

ورأيت في مدينة أسيوط منديلا من صوف الغنم، لم أر ما يقاربها في حسن الصنعة لا في مدينة «لاهور» ولا «ملتان» الهنديتين الشهيرتين بالأصواف ونسجها. ومع أن المنديل من الصوف إلا أنه ناعم الملمس كالحرير.

وغادرنا أسيوط فوصلنا إلى مدينة تسمى «قوص» وفي قوص شاهدت أبنية عتيقة مبنية من الأحجار الكبيرة جدا. وإن الإنسان ليدهش لهذه القوة الخارقة التي استطاعت رفع هذه الأحجار وبناء هذه المباني بها والأعجب من ذلك أنه لا توجد جبال على مسافة عشرة إلى خمسة عشر فرسخا من هذه المدينة فمن أين إذاً جيء بهذه الأحجار؟ وكيف بنيت هذه المنازل الكثيرة. ومن قوص وصلنا إلى مدينة تسمى «أخميم» وهي مدينة شديدة الازدحام كثيرة العمران، وللمدينة سور حصين وبها نخيل كثير وأشجار وبساتين ومكثت في أخميم عشرين يوما. وسبب مقامنا عشرين يوما في المدينة أن ثمة طريقين لا ندرى أيهما سنسلك.

الأول صحراوى جاف لا ماء فيه. والآخر بحرى، وقد ترددنا كثيرا أى الطريقين نختار.

وأخيرا اخترنا الطريق البحرى، وركبنا نهر النيل، فانتهى بنا المطاف إلى مدينة تسمى «أسوان» وفي جنوب المدينة رأينا جبلا قيل إن نهر النيل ينبع من قلبه ويقولون إن السفن لا تستطيع الإبحار أبعد من أسوان لكثرة الشلالات والصنادل التي تعوق حركة الملاحة.

وعلى بعد أربعة فراسخ من أسوان تقع ولاية «النوبة» وأهل النوبة من النصارى وفي كل وقت يبعث ملك النوبة إلى سلطان مصر الهدايا والتحف ويجدّد معه العهود والمواثيق التي تنص على عدم اعتداء أى منهما على حدود الآخر. وتعتبر مدينة أسوان أحد الثغور السلطانية المتاخمة لولاية النوبة، وفيها جيش

كامل العدة تام الاستعداد، حتى لا تحدث النوبيين أنفسهم بالهجوم على حدود مصر.

وأمام مدينة أسوان يرى الزائر جزيرة حالمة ترقد في أحضان النهر الخالد والجزيرة حديقة غناء مليئة بأشجار النخيل والزيتون، وغيرهما من أنواع الثمار وتسقى الحديقة من النهر بواسطة طواحين ترفع إليها الماء، وقد مكثنا في أسوان واحداً وعشرين يوما، لأن أمامنا رحلة صحراوية شاقة تبعد مائتي ميل عن مدينة أسوان تصل إلى ساحل البحر.

وكان الوقت زمان عودة الحجيج من الحجاز، وكانت الجمال تنوخ بأحمالها الثقيلة من الحجاج وأمتعتهم، وكنا ننتظر فرصة الحصول على جمال نستأجرها لمغادرة المكان.

وعندما كنت مقيما في أسوان تعرفت على رجل كريم يدعى «أبوعبدالله محمد بن فليج» رجل صالح تقي، وكان يعرف شيئا من علم المنطق، فساعدني في العثور على ما يحتاج إليه المسافر في هذه الطريق الصحراوية الموحشة.

استأجرت جملا بدينار ونصف دينار، وغادرنا هذه المدينة وتوغلنا في الصحراء وكان ذلك في الخامس من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة. وكانت وجهتنا الجنوب الشرقي، وعلى بعد ثمانية فراسخ وصلنا إلى منزل يقال له «ضيقة» والضيقة هذه واد في فم الصحراء له طريقان يقودان إليه. ويشكل هذان المدخلان المؤديان إلى الوادى شيئا يشبه الحائطين الجبليين وفي وسط الوادى غورعظيم يقع المصدر المائي الوحيد للقوافل فيه. وينبع من ذلك الغور ماء كثير ولكنه أجاج، وهو شيء عظيم جدا في هذه الصحراء.

وعندما فارقنا هذا المنزل سرنا خمسة أيام في بادية لا أثر للماء ولا للحياة فيها ، وكان كل رجل في القافلة يحرص على قربة مائه حرصه على بؤبؤ عينه. وصلنا إلى منزل آخر يقال له «الحوضة» وهو جبل عظيم له فتحتان كبيرتان ينحدر الماء خلالهما ، ويتجمع الماء في حفرة عظيمة في سفح الجبل . وماء هذا الجبل عذب ، والفتحتان كبيرتان بحيث يستطيع الرجل أن يدخل منهما لجلب الماء اللازم لشرب الإبل ، ولقد ظلت الإبل دون ماء لسبعة أيام ، أما العلف فالحديث عنه نوع من العبث في هذه الصحراء الموقدة ، ولا يسمح لنا ولا للجمال بالاستراحة طوال اليوم إلا في حمارة القيظ ، وعندما يصبح التوقف أمرا لا مفر منه .

والأعراب يعرفون هذه المنازل الصحراوية معرفة تدعو إلى العجب حقا . فهم يعرفون أين يتوقفون وأين يحثون الإبل على السير ، وأين يجدون البعر ليتخذوا منه وقودا لهذه القوافل .

وحتى الجمال هذه الحيوانات العجماء تعرف واجبها ولا تركن للكسل لأن معنى ذلك أن تنفق في هذه الصحراء من العطش ، ولذلك تسير بحيث لا تحتاج إلى من يحثها على السير ، ولا تحتاج هذه الجمال إلى من يدلها على الطرق . مع أنه لا أثر ولا علامة تدل على أنها تسير في الاتجاه المطلوب .

وخلال هذه الرحلة الصحراوية كنا نجد الماء أحيانا على بعد خمسة عشر فرسخا وأحيانا لا نجده إلا على بعد ثلاثين أو أربعين فرسخا ، وأغلبها مياه مالحة آسنة لا يشربها المرء إلا خوفا من الهلاك .

في العشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة وصلت إلى مدينة «عيذاب» ومن أسوان إلى عيذاب مائتا فرسخ وقد قطعنا الطريق في خمسة عشر يوما .

وعيذاب مدينة تقع على ساحل بحر القلزم، بها مسجد للجمع، وسكانها لا يزيدون على خمسمائة نفر وهي تابعة لسلطان مصر، وهي مركز تجاري مزدهر من مراكز جمع الخراج السلطاني، يؤخذ من السفن القادمة إليها من الحبشة وزنجبار واليمن. وتأتي السفن إلى ميناء عيذاب محملة بالبضائع وتقوم الجمال بنقل تلك البضائع إلى أسوان عبر هذا الطريق الذى قدمنا منه، ومن أسوان تنقل البضائع إلى مصر عبر نهر النيل.

وفي الجهة اليمنى من مدينة عيذاب يقوم جبل كبير، وخلف هذا الجبل صحراء شاسعة ينبت فيها نبات كثير، وفيها أعداد كبيرة من الماشية، وتقطن الصحراء جماعة كبيرة يقال لها «البجة» وهم قوم متوحشون ممعنون في البداوة بعيدون عن العمران، ولا يعترفون بأى دين ولا نحلة، ولا يتبعون أى رسول أو نبي، وتزيد مساحة تلك الصحراء على ألف فرسخ طولا، وستمائة عرضا، ولا أثر للعمران في كل هذه الصحراء، سوى قريتين هما: بحر النعّام ومدينة عيذاب هذه ـ وتمتد هذه الصحراء طولا من مصر إلى الحبشة أى من الشمال إلى الجنوب كما يمتد عرض هذه الصحراء من بلاد النوبة إلى ساحل بحر القلزم، أى من الغرب إلى الشرق.

والبجة هؤلاء رغم توحشهم في الصحراء إلا أنهم ليسوا سيىء الأخلاق فهم لا يسرقون ولا يغيرون على القوافل، وكل همهم مصروف إلى ماشيتهم. بل كثيرا ما يتعرضون لغارات المسلمين وغير المسلمين من جيرانهم ويقع أطفالهم في أيدي تجار العبيد الذين يعرضونهم للبيع في أسواق العبيد، في مختلف الولايات الإسلامية.

وبحر القلزم خليج مائي ضخم شقه المحيط ابتداء من عدن في الجنوب صعدا إلى الشمال حيث يسمى الخليج بحر القلزم، وهذا الخليج المائي اشتق

اسمـه من الأمـاكن التي يمر بها، فهو هنا يسمى بحر القلزم لأنه يمر بجوار مدينة القلزم، ويسمى في مكان آخر بحر عيذاب وفي مكان ثالث بحر النعّام وهكذا. . .

ويقولون إن في هذا البحر أكثر من ثلاثمائة جزيرة ترتادها السفن وتأتي منها بالزيوت والذرة وألوان من البضائع مختلفات، ويقولون إن البقر والضأن يوجدان بكميات كبيرة جدا في بعض هذه الجزر، ويزعم أهل تلك الجزر أنهم مسلمون بعضهم يتبع ولاية مصر والبعض يتبع ولاية اليمن.

وفي هذه القـريـة عيـذاب لا وجود لمياه العيون والآبار، وكل ذخيرة المدينة من المياه هو ما يجمعونه في فصول الأمطار من السيول ويبالغون في تخزينها.

وإذا طال احتبـاس الأمطـار وشحت الميـاه فإن قبـائـل البجـة تقوم بمهمة جلب الميـاه وبيعهـا للنـاس، وخـلال الثلاثة أشهر التي مكثتها في عيذاب كانت قربة الماء الواحدة تباع بدرهم أحيانا.

وكـانت الـريـاح السائدة رياح شمالية، ومراكبنا تحتاج إلى الرياح الجنوبية لتبـدأ رحلتهـا إلى الحجـاز. وخلال انتظارى في المدينة كان السكان يطلبون منى أن أعظهم وأقوم بينهم خطيبا. وقد كنت أقوم بهذه المهمة شاكرا لهم حسن ظنهم بي. حتى تغيرت الرياح وشرعت السفن في اقتحام اليم فيممت نحو جدة.

ويقـولـون إنـه لا يوجـد نظير لجمال البجة في النجابة في أى مكان. وتحمل هذه النجائب من هنا إلى الحجاز ومصر.

وفي عيذاب حدثني من أثق بحديثه قال: «غادرت ميناء عيذاب ذات يوم سفينة وعلى ظهرها عدد من هذه الجمال النجيبة في طريقها إلى أمير مكة وكنت

على ظهر تلك السفينة. فنفق أحد النجائب، فما أن رميناه في البحر حتى التقمه حوت كبير عملاق، وما أن أوشك على ابتلاعه حتى هاجمه حوت آخر أكبر منه حجما وابتلعه، وابتلع الجمل النافق معه ويسمى ذلك النوع من الحيتان بالقرش.

ورأيت في مدينة عيذاب نوعا من جلد السمك يسمونه في خراسان «الشقق» وكنا في خراسان نظنه جلد نوع من الضباب، حتى رأيته هنا بعينى وتأكدت أنه جلد سمك لا جلد ضب، ورأيت على الجلد الصدف قبل أن يزال عنه ويدبغ.

ذكرت أنني تعرفت خلال إقامتى بمدينة «أسوان» على رجل يدعى «أبو عبدالله محمد بن فليج» وعندما غادرت أسوان في طريقي إلى عيذاب أعطاني ذلك الرجل رسالة إلى صديق له هنا في «عيذاب» وهو صديقه ووكيل أمواله أيضا، وقد طلب من وكيله في تلك الرسالة أن يعطيني ما أشاء قائلا: «ناصر صديقي أعطه كل ما يطلب وخذ منه وصلا حتى أحاسبك بموجبه».

وحيث أني قد اضطررت للإقامة في عيذاب ثلاثة أشهر فقد صرفت كل ما كان معي من نقود، واضطرتني الحاجة إلى الذهاب إلى ذلك الوكيل برسالة صديقي أبي عبدالله محمد بن فليج وقد أكرمني ذلك الوكيل وقال «والله إن أبا عبدالله محمد بن فليج رجل عزيز علي»، ماذا تريد؟ سأعطيك كل ما تريد، ناولني الرسالة، وعجبت لنبل هذا الرجل محمد بن فليج، الذى أحاطني بكل هذا الكرم والإحسان ولو كنت إنسانا طماعا لا يرعى للمعروف حسابا لأخذت من ذلك الوكيل مالا كثيرا، ولكني اكتفيت بأخذ مائة كيلة من الدقيق، وهي أمر عظيم وترف كبير في عيذاب، وأعطيت الوكيل سندا بما أخذت، وقد بعث الوكيل ذلك السند إلى أبي عبدالله محمد بن فليج في أسوان، وقبل أن أغادر

عيـذاب إلى مكـة. جاءتني رسـالة من أبي عبدالله يعاتبني فيها على ذلك المقدار الـزهيـد الـذى أخذته من وكيله، ويناشدني أخذ كل ما أريد من وكيله، كما بعث برسـالـة أخرى بنفس المعنى إلى وكيله يطلب منه إعطائي كل ما أريد ويقول أبو عبـدالله في رسـالتـه إلى وكيله ـ قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليـه: «المؤمن لا يكـون محتشما ولا مغتنما». ولقد ذكرت هذه القصة حتى يعلم القـرَّاء أن خير النـاس من ينفـع النـاس وأن المسلم عماد لأخيـه المسلم وسنـد وأصحاب المروءة والأريحية موجودون في كل مكان وسيوجدون دائما.

مدينــة جــدة

جدة مدينـة كبـيرة ذات سور حصـين وتقع مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر وعدد سكانها نحوا من خمسة آلاف نسمة، وهي تقع إلى الشمال من البحر وبهـا أسـواق نظيفـة جيـدة، تقـع قبلة مسجد الجمعة في الناحية الشرقية، ولا أثر للعمران خارج أسوار مدينة جدة، إلا مسجد يعرف بمسجد الرسول ﷺ.

ولسور جدة بابان، باب مما يلي مكة، وباب مما يلي البحر. إذا خرجت من جده وسـاحلت البحـر واتجهت جنـوبـا وصلت إلى اليمن وإلى مدينـة «صعدة» وتبعد جدة عن اليمن بنحو خمسين فرسخا، وإذا اتجهت إلى الشمال انتهيت إلى مدينة «الجار» والجار جزء من الحجاز.

وجدة بلد غير ذى زرع، وكل ما فيها يجلب إليها من ريف الحجاز والمسافة بين جدة ومكة اثنا عشر فرسخا.

وأمـير جدة أحـد مماليـك أمـير مكـة المكرمة ويقال له «تاج المعالي بن أبي الفتوح» وهو أيضا أمير المدينة.

ولقد زرت هذا الأمير، ورأيت منه ألوانا من كرم الوفادة، وقد أعفاني من دفع الرسوم الجمركية التي تؤخذ عادة من الحجاج في ميناء جدة، وعندما عبرت

«باب مسلم» بعث إلى أمير مكة خطابا يقول فيه «إن ناصر رجل من العلماء ولا يجب أن يؤخذ منه أى رسم جمركي».

ولقد غادرت مدينة جدة يوم الجمعة بعد صلاة العشاء. ووصلت إلى مكة يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة. وقد امتلأت مكة بالعمّار القادمين من كل أنحاء الحجاز واليمن، فإن أول رجب من كل عام موسم عظيم، وكذلك الشأن في عيد الفطر، وفي موسم الحج يفد الحجاج إلى مكة من كل أطراف الأرض.

أما سكان أطراف الحجاز واليمن، فإنهم يؤمون مكة في هذه المواسم الثلاثة لقرب مكة منهم وأعني بالمواسم الثلاثة، غرة رجب وعيد الفطر، وعيد الأضحى.

صفة بلاد العرب كما رآها ناصر خسرو

تقع مكة في واد تحيط به الجبال من كل جانب، ولا تبدو المدينة لقاصدها إلا إذا اقترب منها، وأعلى جبل في مكة هو جبل «أبي قبيس» وهو يشبه قبة عظيمة تشرف على الكعبة، ولو رمى الرامي سهما من أعلى أبي قبيس لاستقر في جوف الكعبة، ويقع أبو قبيس في الجنوب الشرقي من مكة، وأول ما تشرق الشمس في مكة يشاهد قرصها الناري مطلا على مكة من أعالي هذا الجبل.

وفي رأس أبي قبيس عمود حجري يقال إن إبراهيم عليه السلام هو الذي أسسه كما يشاهد المرء ساحة مبسوطة في رأس الجبل لا تزيد مساحتها على أذرع قليلة.

تحيط بالمسجد الحرام أسواق كثيرة ودروب ضيقة تزدحم بالمتاجر. وكلما كان أحد هذه الدروب قريبا من جبل من الجبال فإنهم يبنون عليه سقيفة ويجعلون لها بوابة للدخول وأخرى للخروج.

ولم أر حول المسجد الحرام أي أثر لأشجار باستثناء باب إبراهيم الواقع في الجهة الغربية من الكعبة، فقد رأيت بعض الأشجار الملتفة على حافة بئر ماء هناك وبين تلك الأشجار شجرة ضخمة عملاقة.

ويقع في الجانب الشرقي من الحرم سوق كبيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب ويقع مدخل تلك السوق الرئيسي في الجهة الجنوبية التي في سفح أبي قبيس.

أما الصفا فيقع تحت سفح أبي قبيس مباشرة، بل إن درجات الصفا جزء من صخور أبي قبيس يراه المرء بشكل ظاهر وواضح للعيان.

ويصعد الناس فوق درجات محاذية لتلك الصخور ليبدأوا منسك السعي وتقع المروة في نهاية هذا الممر الطويل الذى يبدأ من الصفا، ويرى الساعي المتاجر عن يمينه ويساره خلال سعيه بين الصفا والمروة، والمروة أكثر ارتفاعا من الصفا وأدخل في الجبل الذى يحاذيها. وتصطف الدكاكين على الصفا، كما تشرف المنازل الجليلة لأعيان مكة على الصفا.

وإذا أراد المرء أن يعتمر خرج من مكة على بعد نصف فرسخ عنها، وهناك يجمع بين الحل والحرم، وفي هذه المواقيت مساجد عامرة يؤدى فيها العمّار ركعتي إحرام العمرة.

وهيئة الإحرام هي أن يتخلص الإنسان من المخيط، ويرتدى إزارا لا خياطة به. والرداء مكون من قطعتين، إزار ورداء، يلتف بهما الإنسان، ثم يرفع صوته بالدعاء قائلا «لبيك اللهم لبيك» وينحدر إلى مكة، فإذا وصل المرء إلى مكة دخل المسجد الحرام وتوجه إلى الكعبة، وعليه أن يترك الكعبة على يساره ويستلم الحجر الأسود حيث يبدأ الطواف ويكرر الهيئة سبع مرات، يرمل في ثلاثة أشواط ويسير الهوينا في الأشواط الأربعة الباقية.

وإذا انتهى الإنسان من نسك الطواف بالبيت، توجه إلى مقام إبراهيم عليه السلام، والمقام وجاه الكعبة، ويقف خلف المقام ويصلي ركعتي الطواف،

وبعد الصلاة والدعاء يتوجه المرء إلى بئر زمزم فإذا شرب من ذلك الماء المقدس وغسل وجهه ويديه غادر البئر إلى باب الصفا، وهو أحد أبواب المسجد الحرام المؤدية إلى المسعى.

فإذا وصل المرء إلى الصفا ارتقى تلك الدرجات التي في السفح واستقبل القبلة داعيا ونوى السعي بين الصفا والمروة سبعا. ثم ينحدر من الصفا إلى المروة ويكون سيره من الجنوب إلى الشمال.

وإذا سار الساعي بين الصفا والمروة فإنه يلاحظ أن الأبواب التي على يساره تطل كلها على المسجد الحرام.

ولقد سعى رسول الله ﷺ في هذا المكان وأسرع وأمر أصحابه بالإسراع حتى لا يظن بهم المشركون ضعفا أو خورا. ويهرول المرء مسافة خمسين قدما في هذا المكان. والمكان الذى هرول فيه النبي ﷺ ظاهرا للعيان معلم بعلامات بارزة لا تخطئها العين. فإذا وصل الساعي إلى المروة صعد إلى أعلى المروة واستقبل القبلة ودعا بالدعاء المعلوم ثم ينحدر إلى الصفا، ويكرر المرء هذا السعي بين الصفا والمروة. فإذا انتهى إلى الصفا أربع مرات وصعد المروة ثلاث مرات يكون قد أتم مناسك السعي بينهما.

وإذا نزل الساعي من المروة في نهاية السعى فإنه يرى سوقا كبيرا، وفي هذا السوق أحصيت عشرين دكانا للحلاقة. يحلقون فيها ويقصرون شعور الحجاج والعمار. وتعتبر هذه الدكاكين امتدادا لسوق كبير يقع شرق المسجد الحرام يقال له سوق العطّارين. وهو سوق كبير، في غاية الجمال وأكثر ما يباع فيه هي الأدوية والعقاقير الطبية والحشائش.

وفي مكة المكرمة حمامان ، زرتهما ورأيت أرضيتهما المغطاة بالحجارة الخضراء الرقيقة .

ويقدر سكان مكة بألفي نسمة ، وفيها خمسمائة من الغرباء والمجاورين . وكان هذا العام الذى حججت فيه عام قحط شديد (٤٤٢هـ) وقد بيعت عشرون وزنة من القمح بدينار ذهبي مغربي ، كما غادر البلاد كثير من أهلها والمجاورين بها من شدة الجوع وعموم الجدب .

ورأيت في مكة كثيرا من المنازل يملكها أقوام من خراسان وما وراء النهر والعراق وهي منازل جياد إلا أن أكثرها قد تحول إلى خرائب بعد أن هجرها أهلها .

وقد عمّر خلفاء بغداد كثيرا من الدور والمنازل في مكة المكرمة ، ولكن عندما جئت إلى مكة كان بعض تلك المباني أيضا قد حل به الخراب ، وتحول البعض الآخر إلى ملك خاص لبعض سكان مكة .

والمياه في مكة كلها شديدة الملوحة ، ظاهرة المرارة حتى لا يمكن استساغتها ولكن يوجد في مكة كثير من الأحواض والمصانع العظيمة التي بلغت تكاليف إنشاء بعضها عشرة آلاف دينار وتملأ هذه الأحواض والمصانع من السنين الخصبة التي تجود فيها السماء بالماء . أما هذا العام فإن تلك الأحواض والمصانع قد جفت ولا قطرة ماء بها .

ويقال إن أحد أمراء مدينة «عدن» يسمى «ابن شاه دل» اكتشف عين ماء غزيرة تحت الأرض فأمر بإجرائها إلى مكة .

ولقد صرف هذا الأمير العدني أموالا طائلة على هذه العين، وعندما أسيلت إلى عرفة استغلها بعض الأمراء في سقي مزارعه. وحبست تلك العين هناك وبنى حولها صهاريج كبيرة. ولم يصل منها إلى مكة إلا النذر اليسير. وقد بنى حول تلك العين المحبوسة في عرفات أحواض تتجمع فيها المياه، وينقلها السقاؤن إلى مكة ويقومون ببيعها.

كما رأيت خارج مكة بئرا يقال لها «بئر الزاهد» وبجانبها مسجد كبير وماء هذه البئر عذب يستقى منه السقاؤن ويجلبون الماء إلى مكة.

وطقس مكة حار جدا، والخضروات كثيرة بها، فقد رأيت في أسواق مكة الخيار والباذنجان وغيرهما، وكلها طرية وجديدة.

وهذه هي المرة الرابعة التي أتشرف بها بالحج إلى البيت العتيق، وقد مكثت في مكة من غرة رجب إلى عشرين من شهر ذى الحجة سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٤٤٢هـ) مجاورا بمكة.

ولقد رأيت في فصل الشتاء من هذا العام أنواعا كثيرة من الفواكه في أسواق مكة، فقد رأيت عنبا جيء به من ريف الحجاز، كما رأيت البطيخ وهو كثير جدا والفواكه لا تكاد تنقطع عن هذا الوادى المقدس «غير ذى زرع».

صفة بلاد العرب واليمن

إذا غادرت مكة وسرت جنوبا وصلت بعد مرحلة واحدة إلى اليمن، وجل السواحل الواقعة على الساحل الجنوبي هي من أرض اليمن، وأرض الحجاز واليمن متصلتان وأهل الحجاز واليمن لسانهم العربية، وتسمى أرض اليمن حمير وأرض الحجاز أرض العرب. ويحيط البحر بأرض العرب من جهاتها الثلاث وأرض العرب تشبه الجزيرة. ففي شرق الجزيرة يقع بحر البصرة، وفي الغرب

بحر القلزم، وفي الجنوب بحر عمان، طول الجزيرة من اليمن إلى الحجاز في امتداد طولي من «الكوفة إلى عدن» ومساحتها خمسمائة فرسخ، كما تمتد من الشمال إلى الجنوب وهو عرضها ومساحته أربعمائة فرسخ.

وأرض العرب تمتد من الكوفة إلى مكة، أما من مكة إلى عدن فيسمى أرض حمير.

ويوجد في بلاد العرب قليل من العمران، والعرب قبائل صحراوية، وأهل إبل وماشية، ومساكنهم الخيام.

وأرض حمير تنقسم إلى ثلاثة أجزاء:

١ ـ يسمى الجزء الأول تهامة ويقع فيها ساحل بحر القلزم، ويقع هذا الجزء في الناحية الغربية من أرض حمير، وفي تهامة مدن كثيرة عامرة بالسكان مثل صعدة وزبيد وصنعاء، ويطل جانب من هذه المدن الثلاث على الصحراء، ويحكم تهامة مملوك حبشي من مماليك حاكم عدن المسمى «شاه دل».

٢ ـ الجزء الثاني من تهامة يسمى (نجدا) ويقال إن في هذا الجزء مناطق شديدة البرودة ومضائق جبلية، وحصونا محكمة.

٣ ـ الجزء الثالث من تهامة يقع في شرقيها، وفيه كثير من المدن مثل «نجران» و«عثر» و«بيشة» وفي هذا الجزء قرى كثيرة وبواد لا تدخل تحت الحصر، وفي كل بادية حاكم مستبد لا يخضع لأى سلطة مركزية. وتكثر في هذه النواحي السرقة والقتل والنهب. ومساحة هذا الجزء من تهامة مائتا فرسخ طولا في مائة وخمسين فرسخاً عرضا. ويكثر السكان في هذا الجزء الشرقي من تهامة.

وقصر غمدان «في اليمن» وبلغني أنه في مدينة يقال لها «صنعاء» ولم يبق من ذلك القصر الشهير سوى بعض الأطلال، ويزعم اليمنيون أن هذا القصر كان قصر ملك الدنيا. كما يزعمون أنه توجد في أطلال ذلك القصر كنوز وركائز كثيرة، ولا يجرؤ إنسان على البحث عن هذه الكنوز، لا من السلاطين ولا من الرعايا. ويجلب العقيق من صنعاء ويسمى العقيق اليماني. وهو حجر كريم يستخرج من الجبال، ورأيت في مصر سيفا من أملاك السلطان وكان مقبضه كله مرصع بالعقيق الأحمر الشبيه بالياقوت.



صفة الكعبة والمسجد الحرام

قلنا إن الكعبة تتوسط المسجد الحرام، والمسجد الحرام يتوسط مكة المكرمة، وطول المسجد الحرام من الشرق إلى الغرب، وعرضه من الشمال إلى الجنوب.

أما جدر المسجد الحرام فهي ليست سواء في الاستقامة. فبعض الأركان تميل إلى الاستدارة ويقابل المصلون الكعبة من كل طرف من أطراف المسجد.

ويبدأ طول المسجد من باب إبراهيم مشرقا إلى باب «بني هاشم» وتبلغ هذه المساحة أربعمائة وأربعة وعشرين ذراعا. ويبدأ عرض المسجد الحرام من باب «الندوة» في الجهة الشمالية إلى باب «الصفا» في الجهة الجنوبية. ومساحة عرض المسجد ليست واحدة دائما. ولكن ذرعت أوسع جهاته فبلغت ثلاثمائة ذراع في مكان وأربعمائة ذراع في مكان آخر. فهذا الجانب العرضي به نتوءات لا تسمح باطراده.

ودائر مدار المسجد الحرام رواق يرتفع على أعمدة رخامية، ويتوسط المسجد أربعة مقامات وفي المسجد مائة وأربعة وثمانون عمودا. يقولون إن خلفاء بغداد هم الذين أرسلوها من الشام إلى مكة المكرمة، عن طريق البحر.

ويقـال إن الحبـال التي شدت بها تلك الأعمـدة في السفينة، قطعت قطعا صغـيرة وبيعت على النـاس تبركـا. وتحصـل من قيمتهـا مبلغ ستـين ألف دينار مغـربي. ومن بين تلك الأعمـدة عمـود عنـد باب «النـدوة» من الـرخام الأحمر. ويقال إن خلفاء بغداد اشتروا هذه الأعمدة بوزن ما يباع الذهب.

عدد أبواب الحرم المكي في زمن المؤلف

للمسجـد الحـرام ثمانيـة عشـر بابـا، ويعلو كل باب إيوان مغلق ليست له أبواب. وقد أقيمت الأبواب على أعمدة مرمرية.

ففي الجهـة الشـرقيـة من المسجـد أربعة أبواب هي: باب النبي وله ثلاثة مداخـل متصلة. وفي الجهـة الجنـوبية منه باب آخر يسمى باب النبي أيضا. وله مدخلان، فإذا خرجت من أبواب النبي هذه قابلك سوق العطارين. ويقال إن بيت رسـول الله ﷺ كان في هذا الـدرب. وكـان النبي يدخل من هذا الباب إلى المسجد للصلاة.

فإذا جاوزت باب النبي ومـا زلت في الجهـة الشرقية، رأيت باب علي عليه السلام، وكان علي رضي الله عنه يدخل إلى المسجد من هذا الباب، ولباب علي ثلاثة مداخل: فإذا جاوزت باب على خارجا من المسجد الحرام، رأيت في زاوية ملاصقـة لجدار المسجـد على يمينـك لوحـة هي التي يسـرع عندها الساعي بين الصفا والمروة، وهذه اللوحة إحدى لوحات أربع يسرع الساعي بينهما بين الصفا والمروة.

وعلى الجدار الجنوبي للمسجد الحرام، سبعة أبواب هي: الأول وهو شبه نصف دائـرة ويقـال له باب «الـدقـاقـين» وله مدخلان، فإذا اتجهت إلى الغرب قليـلا، رأيت بابـا آخـر له مدخلان يقال له باب الفسانين؟ وعلى بعد قليل منه

باب «الصفا» ولباب الصفا خمسة مداخل، وأكبر هذه المداخل هو المدخل الأوسط. وقد خرج رسول الله ﷺ من باب الصفا عندما سعى بين الصفا والمروة.

عتبة باب الصفا الأوسط عبارة عن حجر أبيض تتوسطه قطعة سوداء عليها أثر قدم يقال إنها قدم النبي ﷺ. وتلك القطعة السوداء اقتطعت من مكانها وثبتت هنا في قلب هذه العتبة المؤدية إلى الصفا، ورأيت بعض الحجاج يمرّغ وجهه على هذا الأثر الشريف. وبعضهم يضع قدمه مكان قدم رسول الله. فوضعت وجهي في ذلك المكان، فقد رأيت ذلك من واجبي.

وإذا غادرت باب الصفا متجها إلى الغرب وصلت إلى باب يقال له باب «السطوى» وله مدخلان.

وعلى مسافة من باب «السطوى» يقع باب «التّمارين» وله مدخلان، ثم باب «المعامل» وله مدخلان، وأمام باب التّمارين يقع منزل «أبي لهب» وقد حول الآن إلى مراحيض.

وعلى الجدار الغربي للمسجد الحرام تقع ثلاثة أبواب: باب «عروة» ويقع جزء منه في الجنوب، وله مدخلان، ثم باب «إبراهيم» عليه السلام، وله ثلاثة مداخل، ثم باب الوداع.

وعلى الجدار الشمالي من المسجد الحرام أربعة أبواب هي:
باب «الوسيط» ويعلوه إيوان، ثم باب «العجلة»، ثم باب «الندوة» وله مدخلان، ثم باب «المشاورة» وله مدخل واحد.

وإذا وصلت إلى زاوية المسجد الشمالية الشرقية رأيت بابا يقال له باب «بني شيبة» والكعبة المشرفة تتوسط مساحة المسجد، وهي بناء مربع إلى

الاستطالة أقرب ، للزاوية الممتدة من الشمال إلى الجنوب وتبدو أطول من الزاوية الممتدة من الشرق إلى الغرب .

وارتفاع الكعبة ثلاثون ذراعا وعرضها ستة عشر ذراعا ، ويقع باب الكعبة في الجهة الشرقية ، فإذا ولجت داخل الكعبة فإن الركن العراقي يكون على يمينك والحجر الأسود على يسارك . وتسمى زاوية الكعبة الجنوبية الغربية بالركن اليماني ، كما تسمى الزاوية الشمالية الغربية بالركن الشامي .

ويقع الحجر الأسود في الزاوية الجنوبية الشرقية من الكعبة والحجر فتات من الحجارة السوداء ركبت في حجر كبير ، وأدخل ذلك الحجر في تلك الفتحة . فإذا وقف الرجل معتدلا كان الحجر مقابل صدره ، وطول الحجر الأسود قدر طول اليد ممدوة مضافا إليها أربعة أصابع ، وعرضه قدر ثمانية أصابع ، وشكله مدور ، والمسافة بين الحجر الأسود وباب الكعبة أربعة أذرع ، ويسمى ذلك الموضع بالملتزم .

ويرتفع باب الكعبة عن الأرض قدر أربعة أذرع ، فلو وقف رجل طويل القامة لالتصق رأسه بعتاب الباب . وللكعبة سلم خشبي يرقي عليه إلى الداخل وقت الحاجة . وسعة الكعبة من الداخل تسمح بوقوف عشرة رجال صفا واحدا .

صفة باب الكعبة

باب الكعبة مصنوع من خشب الساج وله مصراعان وارتفاعه ستة أذرع ونصف ذراع . وثخانة كل مصراع شبر وثلاثة أرباع الشبر ، فيكون ثخن المصراعين ثلاثة أشبار ونصف ، وقد زينت واجهة الباب وأطرافه آيات قرآنية . وقد كتبت تلك الآيات القرآنية بالفضة المذهبة ، وتتخلل الكتابة تحاريق سوداء ، وقرأت هذه الآية على الباب خمس آيات أخرى كثيرة «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ . . الآية» .

ولباب الكعبة نقارتان من فضة كبيرتان، تمتدان على مصراعي الباب وقد أرسلا من «غزنين» وقد ثبتت النقارتان بحيث لا تصل إليهما يد، كما توجد نقارتان أصغر حجما، من الأوليين تمتدان أيضا على عرضي مصراعي الباب، وقد ثبتتا بإحكام شديد وغرستا في عمق الخشب وجعل قفل الحلقتين الكبيرتين يمر خلالهما بحيث يضمن أكبر قدر من السلامة للكعبة المشرفة.

هيئة داخل الكعبة

ثخانة جدار الكعبة من الداخل ستة أشبار، وأرض الكعبة مفروشة بالمرمر الأبيض وفي الكعبة ثلاث خلوات صغيرة على هيئة الطاقة، يقابل أحدها باب الكعبة. وتقع الأخريان في شمال الداخل أى أنهما تسامتان الركن اليماني. وتقوم الكعبة في الداخل على ثلاثة أساطين تمتد من الشمال إلى الجنوب وتسند سقف الكعبة. وكلها خشبية. وهي مربعة الشكل أى أن كل جهة من جهاتها الأربع مسطح إلا عمودا واحدا فإنه مدور الشكل.

وجدر الكعبة من الداخل مغطاة بالمرمر المتعدد الألوان. وفي الجانب الغربي من الكعبة ستة محاريب مصنوعة من الفضة الخالصة معلقة في الجدار بمسامير وارتفاع كل محراب عن الأرض قدر رجل، والمحاريب في غاية الدقة والمهارة وهي من الذهب الإبريز ذات نقوش سوداء كأنها تحاريق، فهي تحف ثمينة لذلك وضعت في ذلك الارتفاع البعيد حتى تكون بعيدة عن متناول الأيدى الفضولية.

ونصف البيت الأعلى كله مموه بالذهب يدور به، الحجيرتان اللتان تحدثت عنهما آنفا تسامت إحداهما الركن العراقي، وتسامت الأخرى الركن اليماني، وفي أعلى الحجرتين طاقتان ملتصقتان بأعلى زاويتيهما، والطاقتان خشبيتان يقال إنهما صنعا من ألواح سفينة نوح عليه السلام، وقد علقتا في

الحجرتين بمسامير فضية. وفي الحجيرة المسامتة للحجر الأسود حرير أحمر يفترشهما.

وعلى يمين الداخل إلى جوف الكعبة بويت ذو أربعة أضلاع سعته ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع وبداخله سلالم تقود إلى سطح الكعبة. فإذا صعدت تلك الدرجات واجهك باب فضي من عضادة واحدة يقودك إلى ظهر الكعبة ويسمى «باب الرحمة» وعلى الباب قفل فضي، فإذا صعدت على ظهر الكعبة شاهدت بابا آخر ينام على ظهرها يشبه الباب الأول، وقد غطي البابان بغشاء فضي كثيف.

وسطح الكعبة مغطى بالخشب الثمين وقد بطنه الحرير حتى لا يكاد يبين وفي البروز الذى في جدر السطح التي ترتفع عن الخشب الذى يغطيه كتابة بماء الذهب نقشت على سجف الجدار يتصدرها اسم سلطان مصر الذى أخرج مكة من حكم خلفاء بغداد وهو العزيز لدين الله الفاطمي.

ويرى المرء في سطح الكعبة أربع لوحات فضية كبيرة سطر عليها أسماء أربعة من سلاطين مصر الفاطمين أرسلها كل واحد منهم خلال حكمه لتوضع هنا فوق سطح الكعبة. وحواف السطح مغطاة برخام يماني، وهو رخام شفاف كشفافية البلور.

وللكعبة أربعة مساقط للضوء كل مسقط في ركن من أركان الكعبة الأربعة، وقد غطي كل مسقط بغطاء زجاجي يسمح بمرور ضوء الشمس ويمنع تسرب مياه الأمطار إلى جوف الكعبة.

وميزاب الكعبة من الجهة الشمالية في منتصف حافة الكعبة الشمالية، وطول فتحة الميزاب ثلاثة أشبار، وهو محاط بغلاف ذهبي وثوب الكعبة ذو لون

أبيض، وقد طرز من الجانبين، وثخانة كل طرز قدر شبر، والمسافة بين الطرازين عشرة أشبار تقريبا وهو يشمل دور الكعبة.

وقد رسم على جوانب الكسوة الأربعة صور محاريب ملونة ومنقوشة بخيوط ذهبية، وعدد المحاريب في كل جانب ثلاثة محاريب، محراب كبير يتوسط محرابين صغيرين. وبذلك يكون عدد المحاريب المرسومة على الكسوة اثنا عشر محرابا.

وفي الجهة الشمالية من الكعبة حائط في شكل نصف دائرة، ارتفاعه قدر ذراع ونصف. تمتد شفتا ذلك الحائط إلى قريب من ركني الكعبة الشرقي والغربي. وقد رخّم جدار وأرض الحائط برخام ملون ذى نقوش جليلة. ويسمى الموضع «الحجر» ويطل ميزاب الكعبة على هذا الموضع. وقد وضع تحت الميزاب قطعة حجرية خضراء اللون على شكل هيئة المحراب حتى تتجمع فيه مياه الأمطار. وتلك القطعة الحجرية على سعة يستطيع معها الرجل أن يرقاها ويؤدى الصلاة فوقها.

مقام إبراهيم

ويقع مقام إبراهيم شرقي الكعبة. والمقام عبارة عن صخرة بها آثار قدمي النبي إبراهيم عليه السلام، وقد وضع ذلك الحجر في قلب حجر آخر، وأحيط بغلاف مربع الشكل قدر قامة رجل، والغلاف خشبي منقوش بشكل جيد بديع، وعليه نقرات فضية بارزة. وقد ثبت ذلك الغلاف الخشبي على الصخرة من كلا جانبيه بسلاسل تتصل بأحجار ضخمة موسدة في الأرض بإحكام، وقد أغلقت السلاسل بقفلين حتى لا تمتد الأيدى إلى المقام بالتطاول - والمسافة بين المقام والكعبة قرابة عشرين ذراعا.

بئـر زمـزم

تقع بئر زمزم في شرقي الكعبة. وفي الزاوية المسامتة للحجر الأسود. وبين البئر والكعبة ستة وأربعون ذراعا. واتساع فوهة البئر أربعون شبرا. وماء زمزم به ملوحـة ولكنـه مستسـاغ، ويحيـط بحـافة البئر سياج رخامي أبيض بارتفاع أربعة أذرع. وفي جنبات البئر الأربعة مجاري يسال إليها الماء من البئر ويتوضأ منها الناس. ويغطى أرض البئر الملاصقة لها مجارير خشبية ذات شقوق تسمح بتسرب الماء منها حتى يذهب إلى المجارى السفلى، ولا يترسب أمام البئر.

ويـلي بئـر زمـزم من ورائهـا في النـاحية الشرقية بناء مربع الشكل تعلوه قبة ويسمى الموضع «سقاية الحاج» وتحت تلك القبة دوارق ملئت بماء زمزم لمن يشاء من قصّاد البيت الحرام.

ويـلي دار السقـاية من الجهة الشرقية بناء آخر مستطيل الشكل تعلوه ثلاث قباب ويسمى المكان «خزانة الزيت» وفيها الشمع والزيوت والمصابيح.

ويحيط بالكعبة من جميع جهاتها أساطين ويربط كل عمودين غطاء خشبي في الأعلى مزين بنقـوش وتهـاويـل كثـيرة. ويتـدلى من ذلـك الغطـاء سلاسـل وحلقـات يعلّق عليهـا الشمـع والمصابيح ليلا. وتسمى بسكة المشاعل. والمسافة بين هذه المشاعل والكعبة نحوا من مائة وعشرين شبرا، وهي موضوعة بحيث لا تعوق الطائفين بالبيت.

وجملة البنايات في المسجد الحرام باستثناء الكعبة المعظمة شرفها الله ثلاث بنايات مبنى بئر زمزم، وسقاية الحاج، وخزانة الزيت.

وفي داخــل المظلة التي تحيـط بالمسجـد من جميـع جوانبـه صنـاديق مليئـة بالمصـاحف أوقفهـا المسلمـون من كل أنحـاء العـالم الإسلامي، فهناك صناديق

خاصة بأهل المغرب ومصر والشام والروم والعراقين وخراسان وما وراء النهر وغيره.

وفي الشمال من مكة المكرمة وعلى بعد أربعة فراسخ مكان يقال له «برقة» يقولون إن أمير مكة يقيم به ويقيم معه الجند، والماء متوفر في برقة، والأشجار كثيرة. ومساحة المكان فرسخان في فرسخين.

ولقد جاورت في مكة هذا العام من أول شهر رجب. وعادة أهل مكة أن يفتحوا باب الكعبة طوال شهر رجب، وفي كل يوم مع مطلع الشمس.

مراسيم فتح باب الكعبة

مفتاح باب الكعبة في يد الشيبيين الذين إليهم سدانة البيت وهم من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبد الدار، ولهم على سلطان مصر خلع ومشاهرة ترسل إليهم.

فإذا أرادوا فتح باب الكعبة تقدم زعيم الشيبيين يرافقه ستة نفر آخرون. فإذا وقف الزعيم في أسفل باب الكعبة أمر عشرة أنفار من الحجاج المتجمعين أمام الباب بجلب السلم الخشبي الذى تحدثنا عنه في بعض سطور هذا الكتاب، فإذا جيء بالسلم صعد عليه زعيم الشيبيين ووقف على عتبة الكعبة يرافقه شخصان، فترفع الستارة الصفراء الحريرية، ويمسك كل رجل من المرافقين طرفا من أطراف الستارة فيلج زعيم الشيبيين، ويختفي تحت الستارة والمرافقان له كالحاجبين، ثم يعالج قفل الباب حتى يفتحه، وهو متوار خلف الستارة، وهذه الحركة تثير فضول الناس وتلقى على المراسيم جوا من الأبهة والجلال والغموض. فإذا أخرج الزعيم القفل من حلقتيه. فتح الباب على مصراعيه،

ويكثر الزحام على باب الكعبة ويزدحم الخلق حول الباب كل يؤمل في الحظوة الإلهية.

فإذا تم فتح الباب على مصراعيه ارتفعت الهتافات بالتهليل والتكبير تشق عنان السماء ويتردد صداها في الجبال المحيطة بالحرم، وما إن يسمع سكان مكة التهليل والتكبير حتى يعلموا أنه قد فتح باب الكعبة فيهجمون على الحرم من كل باب ويتجمهرون حول الكعبة وإنه لمشهد وايم الله جليل رهيب.

ويظل ذانك الشخصان يمسكان بطرف الستارة ويبسطانها إلى غاية مداها ثم يدخل زعيم الشيبيين إلى داخل الكعبة حيث تبدأ مراسيم الافتتاح بأداء ركعتين ثم يخرج ويقف على عتبة الكعبة. ويلقى خطبة بصوت عال يبدأها ببسم الله والصلاة على رسول الله وآل بيته الطيبين الطاهرين، ثم يتنحى الزعيم ويقف إلى جانب رفيقيه ويفسح المجال للحجاج بدخول الكعبة المشرفة، فيصلى كل حاج ركعتي تحية ويخرج، وهكذا تظل أفواج الحجيج تدخل إلى جوف الكعبة وتخرج ويتلوها فوج آخر وهكذا إلى منتصف النهار.

ويصلى المرء في جوف الكعبة في أى جهة شاء والأفضل أن يستقبل الكعبة ولقد أحصيت عدد الذين دخلوا الكعبة في نصف نهار واحد فإذا هم قرابة ثمانمائة وعشرين رجلا.

ويؤم الكعبة للحج أعداد غفيرة من أهل اليمن، ويلبسون نصائف من الثياب وشعور رؤوسهم كثة شعثاء. وتبدو سحنهم كما لو كانوا هنودا. وذقونهم طويلة مضفرة. وفي وسطهم حزم قطيفية مما يربطه الهنود في خصورهم ويقولون إن أصل الهنود من اليمن.

والقاعدة في مكة المكرمة أن تفتح أبواب الكعبة المشرفة في منتصف شهر شعبان وكذلك منتصف رمضان. أما في شهر شوال فتفتح أيام الاثنين والخميس والجمعة فإذا أهل شهر ذى القعدة امتنعوا عن فتح الباب المقدس مطلقا.



عمـرة الـجعرانــة

في الشمال الشرقي من مكة وعلى بعد أربعة فراسخ من البيت الحرام تقع الجعرانة. ويقولون إن رسول الله ﷺ كان في هذا الموضع مع جيشه حين قفل من غزوة الطائف. وكان ذلك في الخامس عشر من شهر ذي القعدة في السنة الثامنة للهجـرة. وإنـه عليـه الصلاة والسلام أحرم من الجعرانة وانحدر إلى مكة فطاف وسعى، ورأيت في الجعرانة بئرين. يقال لأحدهما بئر الرسول ﷺ والثاني بئر علي ابن أبي طالب صلوات الله عليـه. وميـاه البئـرين عذبـة سائغـة وقـد بقيت سنة الاعتمار من الجعرانة سائرة إلى اليوم.

وبجـانب البئـرين جبـل من الصخـور الصلدة. وفي ثنايا الجبل حفيرات كثـيرة، تشبـه المعـاجن، يقـولون إن النبي ﷺ عجن بيديه الكريمتين في أحدها عجينا. والحجاج يعجنون الدقيق هناك إلى اليوم. ويستغلون ماء البئرين في معاجنهم.

وفي وادى الجعرانة شجر كثير يؤخذ منه الحطب. ويستعمل الحجاج ذلك الحطب في خبز عجينهم، ثم يحملون ذلك الخبز إلى مواطنهم تبركا.

وفي الجعرانة جبيل يقال إن سيدنا بلالاً رضي الله عنه أذن بالصلاة عليه. ورأيت في الجعرانة كثيرا من الجمال يزيد عددها على مائة بعير. ولم يكن الوقت

موسما من مواسم العمرة. فما ظنك بعدد الجمال في هذا الموضع في المواسم؟

المسافة من مصر إلى مكة المكرمة عبر الطريق التي سلكناها ثلاثمائة فرسخ، والمسافة من مكة إلى اليمن اثنا عشر فرسخا.

مشعر عرفات

صحراء عرفة في قلب مجموعة من الجبيلات الصغيرة الشبيهة بأسنام البخت ولا تزيد سعة عرفة عن فرسخين في فرسخين. ويقع مسجد نمرة في وسط عرفة ويزعمون أن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى ذلك المسجد في ذلك المكان. ولقد كان منبر المسجد مهدما عندما شاهدته. وعندما يحين وقت صلاة الظهر يصعد الخطيب على بقايا المنبر ويلقي خطبة جامعة، ثم يؤذن للصلاة ويصلي الإمام بالناس ركعتين. وهي صلاة سفر مقصورة، ثم يصلي بهم ركعتين أخريين للعصر. ثم يركب الإمام جملا ويتجه إلى الجهة الشرقية من عرفات حيث يرقى جبيلا صغيرا.

ويسمى ذلك الجبل «جبل الرحمة» ويقف الإمام على الجبل ممتطيا ناقته متجها إلى القبلة في الجهة الغربية ويظل يدعو الله ويسأله الرحمة والغفران إلى غروب الشمس.

ورأيت في سفح جبل الرحمة أحواض مياه يقال إن أمير عدن المسمى «شاه دل» هو الذى أمر بإحداثها وصرف عليها أموالا كثيرة. كما يقال إن الماء ينبع من سفح جبل الرحمة هذا، فيملأ هذه الأحواض وأحواض أخرى غيرها مبثوثة في نقاط موزعة في صحراء عرفة يرتوى منها الحجاج أيام الحج.

كما رأيت فوق جبل الرحمة أربعة حجر كبيرة تشعل فيها المصابيح ليل نهار ويمكن مشاهدة ضوئها من بعد فرسخين. وبلغني أن الأمير «شاه دل» هو الذي أمر ببناء هذه الحجر وإضاءتها.

كما يزعمون أن أمير مكة قبض ألف دينار قبل أن يسمح لأمير عدن ببناء هذه الحجر وإضاءتها.

وهكذا وفقني الله عز وجل للوقوف بهذا الموقف العظيم للمرة الرابعة. وعندما غربت الشمس انحدر الخطيب من الجبل وتبعه الحجاج. فساروا حتى وصلوا إلى بعد فرسخ واحد من عرفة إلى المشعر الحرام. ويسمى الموضع «مزدلفة» ورأيت في مزدلفة بناء عظيما يشبه المقصورة، يؤدى فيه الحجيج الصلاة، صلاتي المغرب والعشاء قصرا وجمعا. كما يلتقطون الجمار من هذا الموضع.

والعادة الجارية هي أن يقضي الحجاج ليلتهم تلك في هذا المشعر الحرام إلى الصبح وعند طلوع الشمس يواصلون سيرهم إلى منى، فيرجمون ويذبحون الأضاحي وفي منى مسجد عظيم يقال له مسجد الخيف.

وهذا اليوم الأول للناس في منى هو يوم العيد الأكبر، ومع ذلك فليس من السنة إلقاء الخطب أو تأدية الصلاة جماعة في منى.

يقضي الحجاج هذا اليوم العاشر من شهر ذى الحجة بمنى، ويرجمون الجمرة الكبرى، وتفاصيل الرجم متوافرة في بطون كتب الفقه على كل المذاهب فلا مبرر للشرح.

في اليوم الثاني عشر من شهر ذى الحجة ينصرف الحجاج من منى ويسافرون إلى أوطانهم. ومن أراد الذهاب إلى مكة انحدر إليها.

الطريق إلى الأحساء

بعد أن فرغت من المناسك استكريت بعيرا من أحد الأعراب ليحملني إلى الأحساء. ويقولون إن مسافة الطريق من مكة إلى الأحساء تقطع في ثلاثة عشر يوما.

طفت بالكعبة طواف الوداع، وغادرت مكة يوم الجمعة التاسع عشر من شهر ذى الحجة سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٤٤٢هـ).

وصلنا على بعد سبعة فراسخ في شرق مكة المكرمة إلى واحة غناء، فرأينا جبلا عظيما سامقا تجاهنا، فسلكنا طريقا في ذلك الجبل فقادنا إلى مزارع وقريّات صغيرة على حافة بئر يدعى «بئر الحسين بن سلامة» وطقس هذا المكان شديد البرودة، وما زلنا متجهين شرقا.

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر ذى الحجة وصلنا إلى الطائف والمسافة بين مكة والطائف اثنا عشر فرسخا.

الطائف

الطائف ناحية في شرق مكة، وتقع المدينة على تلال جبلية مرتفعة، وكان الطقس فيها باردا جدا حتى إن الإنسان لا يستطيع الجلوس إلا في الشمس،

والطائف موضع أكبر من القرية ودون المدينة، وللطائف سور محكم وسويقة صغيرة، وجامع متوسط الحجم. ومياه الطائف غزيرة، وتكثر في المدينة أشجار الرمان والتين.

وفي الطائف قبر عبدالله بن عباس رضي الله عنه، ويقع القبر في حافة المدينة وقد بنى الخلفاء العباسيون حول القبر مسجدا عظيما، وأدخلوا قبر عبدالله ابن عباس في زاوية المسجد تقع على يمين المحراب والمنبر، وبنى الناس حول المسجد منازل كثيرة.

خرجنا من الطائف وسرنا في طريق جبلية ذات منعطفات، وكنا نمر في طريقنا على حصون صغيرة وقريّات. وفي أحد المنعطفات رأيت حصينا قديما خربا باليا زعم لي الدليل أنه بقايا منازل ليلى العامرية، وقصة ليلى والمجنون قصة عربية عجيبة.

وصلنا إلى حصن يقال له «المطار» يبعد عن الطائف أحد عشر فرسخا.

ومن حصن المطار وصلنا إلى موضع يقال له «الثريا» ورأيت في هذا الموضع نخلا كثيرا وشيئا من الزراعة، وتسقى أشجار النخيل والمزارع من بئر عليها سانية.

ويقال إنه لا يوجد في هذا الموضع حاكم مسموع الكلمة مطاعا، بل الأمر فوضى وكل أعرابي يرى نفسه حاكما وأميرا ولا سلطان لأحد عليه. والسرقة والحروب منتشرة بين أعراب هذه الأماكن، ولا تكاد الحروب تنقطع بينهم، ويبعد هذا المكان عن الطائف قدر خمسة وعشرين فرسخا.

وعندما غادرنا «الثريا» وصلنا إلى مكان يدعى «الجزع» ورأيت في الجزع أربعة حصون في مساحة لا تزيد على نصف فرسخ. واخترنا أكبر الحصون

الأربعـة ونـزلنـا فيه ويسمى «حصن بني نسير» وفي هذا الحصن قليل من الزراعة وطائفة من النخيل. وعلمنا أن منزل دليلنا الأعرابي الذى استكرينا بعيره يقع في هذا المكان المسمى «جزع».

ولقـد مكثنـا في هذا المـوضع خمسة عشر يوما نبحث عن خفير نواصل معه رحلتنـا. وعـرب هذا المـوضـع قد قسموا الحدود والمراعي بينهم، وقد علمت كل طائفة حدود أرضها ومراعيها. ولا يستطيع الغرباء أمثالنا عبور الحدود دون خفير تعرفه القبائل وإلاّ تعرضوا للنهب، وما هو أسوأ من النهب.

وقد صادف أن جاء إلى «حصن بني نسير» أحد مشايخ القبائل المعروفين وعندما أراد الخروج من الحصن قبل القيام بخفارتنا. واسمه «أبو غانم عبس بن البصـير» وهـو شيـخ قبيلة من الأعراب في طريقنا تسمى «بني سواد»، وما إن رآنا بعض الأعراب نسير مع هذا الأعرابي حتى ظنّونا صيدا ثمينا فكل غريب صيد في هذه البوادى. ولولا خشيتهم من بأس أبي غانم هذا لأوردونا موارد الهلكة.

وفي قبيلة «بني سواد» أقمنـا أيـامـا لا نجد خفيرا يعبر بنا البادية. ثم وفقنا إلى أعرابيين لخفارتنا. ودفعنا لكل واحد منهما عشرة دنانير.

وقد تعهد الأعرابيان بتمريرنا إلى القبيلة التي تلي قبيلتهما، ولقد علمت أن بعض أفراد هذه القبائل قد يعيش سبعين سنة وهو لا يعرف من الطعام إلا لحوم الإبـل. فهـذه البوادى لا شيء بها سوى هذه الأعلاف الهزيلة التي تتغذى عليها الإبـل لتصبـح الإبـل بدورهـا غذاء لهؤلاء الأعـراب، وهم يظنون أن العالم كله على هذه الهيئة التي هم عليها.

وقـد مكثنـا أياما ننتقل من يد خفير قبيلة عربية ليد خفير آخر، كأننا سلع وقـد كان الخطـر يكمن في كل خطـوة خطوناها في هذه البوادى الموحشة ولكن الله

سلم . فقد أراد لنا أن نعبر تلك البوادى في حفظه ورعايته .

وصلنا إلى مكان جبلي تكثر فيه المنعطفات ، ورأيت ثمة جبالا تشبه القباب لم أر مثلها في حياتي ، وهي جبال قليلة الارتفاع ، وهي جبال ملساء أشد ملاسة من البيض . وفي غاية الصلابة ، فهي من الصخر الصوان ، ولا أثر للشقوق فيها .

ثم عبرنا ذلك المكان العجيب ، وكان خفراؤ نا العرب لا يرون ضبا إلا قتلوه وأكلوه . ثم شربوا من ألبان الجمال . فحيث وجد العرب وجدت الجمال وألبانها .

أما أنا فلم أستطع أكل الضباب ولا شرب ألبان الإبل ، فكان طعامنا لعدة أيام في هذه البادية هو نبات شجرة مصيفة تنبت في الصحراء ، لها حب يشبه حب القمح وتسمى «حب القلت» ، فكنا نجمع هذه الحبوب ، ونقنع بتناولها .

الأفلاج

وبعد جهد كبير ومشقة كبيرة وأهوال عانيناها خلال رحلة العذاب هذه وصلنا إلى مكان يدعى «فلج» وكان ذلك في الثالث والعشرين من شهر صفر سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة .

والمسافة من مكة إلى فلج هذه مائة وثمانون فرسخا .

وفلج واحة كبيرة في قلب الصحراء ، ولكن عندما وصلتها كانت أشبه بأطلال خربتها العصبيات القبلية التي لا تنام في صحراء العرب . ولم يبق عامرا من هذه الواحة الكبيرة سوى قدر نصف فرسخ ضربا في ميل واحد .

ورأيت في هذه المساحة الصغيرة المتبقية أربعة عشر حصنا، في كل حصين مجموعة من الرجال تمتهن السرقة وتعيث في الأرض فسادا.

وقد انقسمت هذه الحصون الأربعة عشر قسمين يضمر كل واحد منهما للآخر العداوة والبغضاء. ويقول سكان هذه الواحة «فلج» نحن أصحاب «الرسيم» الذين جاء ذكرهم في القرآن. إنهم قوم جهلاء غلاظ الأكباد.

وفي هذه الواحة أربعة عيون تسقى أشجار النخيل، أما مياه الشرب فتمتاح من الآبار، وتقوم الجمال بامتياح الماء من الآبار، أما البقر فلم أره أبدا في هذه الصحراء العربية.

وزراعة الواحة على وجه الإجمال ليست كثيرة، فالفلاحون يعملون في هذه المزارع القليلة بقليل من القمح يصنعون منه خبزا يتناولونه ليلا في منازلهم إلى الليلة التالية، وكأنهم صائمو الدهر، فلم أرهم يأكلون شيئا في النهار إلا تميرات قليلة، وتمر فلج من أجود أنواع التمور لم أر ما يدانيه حتى ولا في البصرة.

وسكان فلج في غاية الفقر والمسكنة. ومع ذلك لا تنقطع الخصومات والحروب بينهم.

ورأيت في هذا المكان نوعا من التمر يقال له «ميدون» تزن التمرة الواحدة عشرة دراهم، ولا تزيد زنة النواة التي في داخلها عن دانق ونصف دانق ويزعمون أن هذا النوع لو خزن عشرين عاما فإنه لا يفسد أو يتغير لونه أو طعمه.

وكنت في هذه المدينة على درجة كبيرة من الفقر والبؤس ولا أملك سوى سلتين أحتفظ فيهما بكتبي. والأعراب في هذه المدينة على درجة كبيرة من الجوع

والعرى، وتشيع بينهم الأمية، ولا يخرج الرجل منهم إلى المسجد إلا ومعه سيفه ورمحه، أما الكتاب فلا قيمة له لديهم إذن لبعت السلتين وما فيهما من كتب لأطرد غائلة الجوع.

ولقد كنا نقيم في مسجد المدينة طوال وجودنا في فلج. وكان في حوزتي بعض الألوان من لاجورد وغيره. فعمدت إلى جدار في المسجد فكتبت عليه بيتا من الشعر وزينته بما يشبه غصون وأوراق الشجر، فلما رآه القوم دهشوا وأعجبوا بهذا المنظر وجاء كثير من سكان المدينة للفرجة على ما عدوه تحفة فنية، وقالوا لي إنني إذا استطعت أن أزين محراب المسجد بهذه الألوان فسيكون أجرى مائة منّ من التمر، وهو أمر عظيم في هذا المكان، ولا أقول هذا جزافا وادعاء، فقد رأيت خلال إقامتي بينهم حربا نشبت بينهم وبين جيش قدم إلى مدينتهم لأخذ خمسمائة منّ من التمر، فقاتلوه، وقتل عشرة أشخاص من سكان الحصن، وقطعت مائة نخلة من أشجار نخيلهم، ومع ذلك لم يعطوا ذلك الجيش ولا حتى عشرة أمنان.

وقد قبلت شرطهم، ونقشت المحراب، واجتهدت في تجميله، وحصلت على مائة الكيل تمرا، فكانت نعم النجدة لنا، فقد كدنا نهلك من الجوع، وبلغ بنا اليأس أقصاه، حتى ظننا أن فلج ستكون مثوانا الأخير. فإن بيننا وبين العمران مائتا فرسخ على كل طرف من أطراف هذه الواحة الواقعة في قلب صحراء العرب المخيفة المهلكة. وخلال أربعة أشهر وهي مدة إقامتنا في فلج لم أر خمسة كيل قمح في مكان واحد.

وأخيرا قدمت من اليمامة قافلة لتحمل الجلود إلى الأحساء، وهذه الجلود تجلب من اليمن إلى الأفلاج حيث تباع إلى تجار الجلود الذين يبيعونها بدورهم على تجار اليمامة الذين يتولون نقلها إلى الأحساء.

اتفقت مع أعـرابي من رجـال القـافلة اليـمامية أن يحملني إلى الأحساء ولم يكن معي دانق واحـد. والمسـافة من الفلج الى البصرة مائتا فرسخ، وأجر البعير دينـار واحـد، مع أن قيمـة البعـير الجيـد لا تتعـدى ثلاثـة دنـانير، وعندما علم الأعـرابي أني لا أملك شيئـا من النقـود حالة معي، اشترط عليّ أن أدفع ثلاثين دينارا عندما نصل إلى البصرة فقبلت مضطرا.

فوضـع الأعـرابي سلال كتبي على جمل، وركب أخي جملا آخـر، أما أنا فقد فضلت السير على قدمي، وكان سيرنا باتجاه مطلع بنات النعش. وكنا نسير على أرض منبسطة فسيحة لا أثر للجبال أو المرتفعات فيها. وكلما كانت الأرض أجادب فإن مياه الأمطار تتجمع فيها. وكنا نسير ليلا ونهارا. ولم يكن يبدو أمامنا أى أثـر لطـريق مطـروق، والعجيب أن هؤلاء الأعـراب كانـوا يأتون فجأة على مورد للماء.

اليمامـــة

بعد أربعة أيام من السير الحثيث وصلنا إلى اليمامة.

ولليمامة سور عظيم حصين تبدو عليه آثار القدم، ورأيت في خارج السور مدينـة وسـوقـا فيه كل أنواع الصنّاع، وللمدينة مسجد عظيم. وحكام اليمامة من العلويين، وهم يحكمون المنطقة منذ زمن بعيد. ولم يخرجها أحد من أيديهم، لانه لاتجـاورهم سلطـة مركـزيـة قويـة تضمهم إليهـا. ويتمتع هؤلاء الحكام بشوكة عظيمـة فلديهم بين ثلاثـمائة إلى أربعمائة فارس. مذهبهم الزيدية، وهم يقولون في الآذان «محمـد وعـلي خير البشـر وحي على خير العمـل» ويـزعمون أنهم من الأشراف والمياه وفيرة في اليمامة حيث تنتشر القنوات وتكثر أشجار النخيل وعندما يكثر التمر في اليمامة يباع الألف منّ بدينار واحد.

الأحســاء

ومن اليـمامـة إلى الأحساء أربعون فرسخا وترحل القوافل في الشتاء حيث تكثر مياه الأمطار، وتفيض الآبار بالماء، لأن رحلة الصيف شاقة مضنية.

ومـدينـة الأحساء تقع في جوف الصحراء، ومن حيث قصدتها فلا مفر من قطـع مغـاور صحـراويـة واسعـة، وأقـرب مدينـة إلى الأحســاء يوجد بها سلطة للخلافة العباسية هي البصرة التي تبعد عن الأحساء قرابة مائة وخمسين فرسخا، ولم أسمع أن أحد حكام البصرة حاول يوما بسط سلطانه على الأحساء.

صفة مدينة الأحساء

مدينـة ذات أسـوار عظيمة تضم المزارع والأرياف داخلها ولها أربعة أسوار كل واحـد يحيـط بالآخـر في شبـه دائـرة كاملة. ومـادة الأسـوار من اللبن الشديد الإحكـام. والمســافـة بين السور والآخر قرابة فرسخ، وتكثر العيون في الأحساء، وعلى كل العيـون سواقى ترفـع المـاء تسقى المـزارع وجـلّ ماء العيـون في المدينة تستنفد في سقي المزارع الكثيرة بها، ولا طريقة لخروج الماء من المدينة.

ومدينة الأحساء تتوسط هذه الأسوار العظيمة، ويوجد بها من الإمكانيات كل ما يراه المـرء في كبر يـات المـدن. وعـدد جيش المـدينـة أكثر من عشرين ألف جنـدى ويـزعمـون أن حاكم المدينة شريف من الأشراف قد منع الناس من تأدية شرائع الإسلام وقال لهم قد رفعت عنكم الصلاة والصيام وأخبرهم أن لا مرجع لهم في أمور الدين غيره. واسم حاكم الأحساء «أبو سعيد».

وإذا سئـل أهـل الأحســاء عن مذهبهم أجـابـوا نحن «بـوسعيـديون» ولا يصلون ولا يصـومـون. ولكنهم يعـترفـون برسالة محمد ﷺ ويقرون بنبوته، وقد أوهم أبـو سعيـد هذا قومـه أنـه سيبعث ويعود إليهم بعد موته، وقبره في الأحساء

وعليه مشهد كبير.

وقد أوصى أبو سعيد خلفاءه وهم من أبنائه أوصاهم بأن يتكون مجلس حكمهم من ستة أعضاء منهم يتعاونون في إدارة دفة الحكم، كما أوصاهم بمراعاة العدل والإنصاف في الرعية، وأن لا يختلفوا بينهم وأوهمهم أنه سيعود إليهم بعد موته.

وللأسرة البوسعيدية الحاكمة في الأحساء قصر عظيم، هو دار ملكهم. والعرش الملكي عليه ستة كراسي يجلس على كل كرسي واحد من الحكام البوسعيديين الستة، ويقابل العرش الملكي. مكان آخر صفت عليه ستة تخوت يجلس عليها ستة من الوزراء، ويتعاون هذا المجلس السلطاني في التشاور والتداول في شؤون الناس. ومعاملات الناس في الأحساء في البيع والشراء تتم بعملة رصاصية يضعونها في مقاطف، ويزن الرصاص في كل مقطف ما مقداره ستة آلاف درهم حجرى، فإذا باعوا أو شروا تم ذلك بواسطة هذه المقاطف، التي تحوى الرصاص ولا يسمح بتداول هذه العملة خارج الأحساء.

ورأيت في الأحساء نوعا من النسيج الجيد يقال له «فوطة» يحملونه إلى البصرة للتجارة ثم ينقل من البصرة إلى كل أطراف العالم.

والأحسائيون لا يصلون ولكنهم لا يمنعون أحدا من تأدية الصلاة، وإذا ركب السلطان فإنه لا يمنع الناس من السير في موكبه بل يحدثهم ويتباسط معهم في تواضع ظاهر. وأهل الأحساء لا يشربون الخمر مطلقا.

يرابط على قبر «أبو سعيد» مؤسس الأسرة الحاكمة في البحرين فارس على صهوة جواده، ويتناوب الجند حراسة ذلك القبر ليل نهار، وهم يتوقعون

انبعاث أبي سعيد من القبر، لذلك وضعوا على القبر فرسا مطهما في غاية الزينة والأبهة ليركبه الأمير إذا قدر له أن يبتعث من قبره.

ويقول أهل الأحساء إن أبا سعيد قال لأبنائه وهو على فراش الموت إنني سأبعث وأعود إليكم بعد موتي، فإذا لم تتعرفوا عليّ فاضربوا عنقي بالسيف فإني سأحى مرة أخرى. وقد قال أبو سعيد هذه القالة حتى لا يجرؤ إنسان بعد موته على الادعاء أنه «بوسعيد».

وللبوسعيديين ثلاثون ألف مملوك من عبيد الشراء من الزنوج والأحباش، يتولى هذا الجيش من المماليك زراعة أملاك الأسرة الحاكمة ولا يأخذون من السكان أية عشور من غلاتهم الزراعية.

وإذا افتقر أحد السكان أو ركبه دين فإن البوسعيديين يتعهدونه حتى تنصلح حاله ويقضي دينه. وإذا حلّ بمدينتهم شخص غريب وكان يتقن مهنة من المهن وكان محتاجا إلى المال فإنهم يعينونه حتى تزدهر صناعته وعندئذ عليه أن يسدد ما اقترضه من مال وإذا خربت مزرعة أحد الدهاقين ولم تكن لديه القدرة على استصلاحها أرسل البوسعيديون نفرا من مماليكهم لإصلاح تلك المزرعة دون أن يتقاضوا من صاحبها شيئا.

ورأيت في الأحساء مطاحن للدقيق يملكها البوسعيديون، وتتولى طحن غلال السكان دون ثمن. ويصرف للعاملين فيها والمشرفين عليها من الخزانة السلطانية.

ويسمون سلاطين الأحساء بالسادة، كما يسمى وزراؤهم (بالشائرة)، ولم أر في الأحساء مسجدا للجمع، فإنهم لا يصلون ولا يخطبون في أيام الجمع.

إلا أن رجلا فارسيا بنى في الأحساء مسجدا واسم ذلك الرجل «علي بن أحمد» وهو رجل صالح من خيار المسلمين، فإذا مر الحجاج وأغنياء المسلمين بالأحساء وسمعوا به وصلوا في مسجده تعهدوا الرجل بالمال والإحسان.

ويقال إن أحد سلاطين البوسعيديين، وفي زمن خلفاء بغداد، دخل مكة بجيش كبير واستولى عليها، وقتل خلقا كثيرا من أهلها، كما قتل الطائفين بالبيت الحرام وانتزع الحجر الأسود من مكانه وحمله إلى الأحساء، ويزعم الناس أن للحجر الأسود مغناطيسا يجلب الناس إليه من كل أطراف الأرض. وهذا الزعم ساذج ولا أساس له من الصحة وإنما الذى يجلب الناس إلى الحجر الأسود هو إيمانهم بالله وامتثالهم لأوامر رسوله محمد ﷺ. والدليل على ذلك أن الحجر ظل في مكانه سنين طويلة ولم يجذب أحدا إليه إلى أن أمر الله رسوله باتخاذ الكعبة قبلة، وأمره باستلام الحجر الأسود.

وأخيرا اشترى بعض الخلفاء الحجر من البوسعيديين وأعادوه إلى مكانه في الكعبة. وتوجد في الأحساء لحوم كل الحيوانات كالقطط والكلاب والحمير والبقر والغنم، وكل نوع من اللحم يشترطون على بائعه أن يضع رأس الحيوان إلى جانبه حتى يعرف الشارى نوع اللحم.

وفي الأحساء يسمنون الكلاب ويعلفونها كما يعلفون الغنم حتى تصبح عاجزة عن المشي من كثرة الشحم واللحم ثم يذبحونها ويأكلونها.



مدينــة البحريـن

إذا غادرت الأحساء واتجهت شرقا رأيت بحرا على مسافة سبعة فراسخ من الأحساء، فإذا ركبت البحر وصلت إلى مدينة البحرين.

والبحـرين جزيـرة في وسـط البحـر، مسـاحتها خمسة عشر فرسخا، وهي مدينـة عامـرة كبـيرة، وبهـا كثـير من أشجـار النخيـل، واللؤلؤ كثـير جدا فيها يستخرج من سواحلها. ونصف ما يستخرج من اللؤلؤ في البحرين ملك لحكام الأحساء.

وإذا اتجهت من الأحســـاء جنـوبـا وصلت إلى «عُـمان» وعُـمان من أرض العرب وهي محاطة بالصحراء من جهات ثلاث. وهي مفازة لا يستطيع أى إنسان اجتيازها.

ومســاحـة عُمان ثمانـون فرسخـا في ثمانـين فرسخـا، وطقس المـدينة شديد الحرارة ويكثر بها جوز الهند ويسمى هناك «نارجيل».

وإذا سرت في بحــر عُمان واتجـهت شرقــا انتهيت إلى جزيــرتي «كيش و مكـران» وإذا ابحـرت جنـوبـا وصلت إلى «عـدن» كما يمكن الإبحـار من «بحر عُمان» إلى فارس.

تمر الأحساء

والتمر في الأحساء كثير كثرة مفرطة، حتى إن البغال تعلف من التمر وتسمن عليه وإذا كثر التمر فإن أكثر من ألف منّ من التمر يباع بدينار واحد.

مدينـة القطيـف

وإذا اتجهت إلى شمال الأحساء وجدت «القطيف» على بعد سبعة فراسخ والقطيف مدينة كبيرة ذات نخيل وفير.

وعندما كنت في الأحساء جاء إليها أحد أمراء الأعراب، وسكن فيها سنة ثم استولى على أحد حصونها الأربعة، وأغار على كثير من المزارع والنخيل، وكان يريد الاستيلاء على كل الأحساء ولكنه لم يوفق.

وعندما علم الأمير أن لدى إلماما بعلم الفلك سألني أن أرى له إذا كان في استطاعته الاستيلاء على الأحساء أم لا، وزعم الأمير أنه يريد الاستيلاء على المدينة لأن أهلها كفرة. فقلت له ما اقتضت المصلحة قوله.

ولقد رأيت من أعراب هذه المواضع من يمر عليهم العام كله ولا يقربون الماء من أجسادهم. وهذا الذى أقوله إنما هو نتيجة مشاهدة واختبار خلال تسعة شهور متواصلة عشتها بين هؤلاء الناس. وليس حديثي من باب الأراجيف والدعاوى التي لا بينة عليها.

ورأيت بعض الأعراب في بادية العرب هذه لا يعرفون الماء. فهم يشربون ألبان الإبل ويغتسلون بأبوالها. وكل ما سألت عن ماء أجابوني إذا رأيت ماء فدلنا عليه. بعضهم لم ير الحمام في حياته ولم يشاهد الماء الجاري.



الطريق إلى البصـرة

عندما غادرت اليمامة في طريقي إلى البصرة كنا نمر بأماكن بها مياه وأماكن أخــرى لا ماء بها. ثم وصلنـا إلى البصـرة في العشـرين من شعبـان سنـة ثلاث وأربعين وأربعمائة (٤٤٣هـ).

ويحيـط بمـدينة البصرة سور من جهاتها الثلاث عدا الجهة المطلة على الماء فلا سور عليها. والماء الذي تطل عليه البصرة هو شاطيء دجلة والفرات اللذين يلتقيـان في البصـرة وعنـدمـا ينضم إليهما نهر «الجويز» يسمى ذلك المجمع المائي «شط العرب».

وقـد شقـوا مجريـين عظيمـين في هذا الشـط، وبين كل مجرى وآخر مسافة فرسـخ واحـد. وإسالة المجريين صوب القبلة مسافة أربعة فراسخ، حيث يلتقي بهما مجرى آخر في الناحية الجنوبية.

وفي هذه المجـارى العظيمـة الثـلاثة المتفرعة من شط العرب فرعوا مجارى أخرى أصغر حجما مهمتها سقي نخيل البصرة الكثير ومزارعها. كما بنوا الحدائق على سواحل هذه الفروع الثلاثة.

والفرعان العظيمان على شط العرب يعلو أحدهما الآخر، أما العالي فيجرى باتجاه الشمال الشرقي ويدعى «نهر معقل» والمجرى الأدنى ويجرى باتجاه الجنوب الغربي ويعرف «بالأبلة» ووسط هذين الفرعين العظيمين تنام جزيرة كبيرة على شكل مربع مستطيل وتقع مدينة البصرة في إحدى زوايا هذا المربع وبالتحديد في ضلعه الذي يبدو أقصر من بقية الأضلاع .

وفي الجهة الجنوبية الغربية من مدينة البصرة تمتد برية صحراوية، لا عمران ولا زراعة بها، وعندما كنت في البصرة سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، كان أكثر المدينة خرابا، رغم أن البصرة واحدة من أكثر مدن الدنيا عمرانا، فلا تكاد تسير من محلة إلى محلة داخل البصرة مسافة نصف فرسخ حتى ترى الخرائب، رغم أن سور المدينة يبدو قويا محكما لا أثر للخراب فيه، وعدد السكان كثير، ودخل حكام البصرة على غاية الوفرة .

وكان حاكم البصرة يوم وصلتها هو «ابن أبي كاليجار الديلمي» وكان ملك مقاطعة فارس، والبصرة جزء من أملاكه، كما كان له وزير فارسي هو «أبو منصور شاه مردان» .

وللبصرة ثلاثة أسواق، ففي أول النهار يكون سوقهم حيث تتم المعاملات في مكان يسمى «سوق خزاعة» وفي وسط النهار ينتقل السوق إلى مكان يسمى «سوق عثمان» وفي آخر النهار ينتقل السوق إلى مكان ثالث يسمى «سوق القداحين» . وتتم المعاملات من البيع والشراء في البصرة بطريقة غريبة، فإذا أراد الإنسان أن يشترى شيئا فإنه يدفع النقود لأحد الصرافين فيعطيه الصراف إيصالا، يستطيع بموجبه شراء ما يريد، فإذا كنت في مدينة البصرة فإنك لا تستطيع شراء أى شيء من أسواقها إلا بوسيلة هذه الإيصالات التي يصرفها الصرافون مقابل النقود .

وعندما وصلنا البصرة كنا على حالة من العرى والعجز بدرجة جعلتنا نبدو كالمجانين. فإننا لم نحسن شعورنا منذ ثلاثة أشهر. فأردنا أن نذهب إلى حمام عام في المدينة وكان الطقس شديد البرودة، ولم تكن لديّ ولا لدى أخي أى ثياب جيدة تقي نفحات البرد، بل اكتفى كل منا بإزار مهترىء قديم، خلق بالية لا تستر العورة، هذا كل رأس مالنا من الدنيا.

قلت لنفسي فلنذهب إلى الحمام. ولكن من أين لنا بالنقود؟ كان معي خرج صغير فيه شيء من كتبي، فبعته بدريهمات قليلة ووضعتها في ورقة وذهبت إلى الحمّامي عله يسمح لنا بالاغتسال والمكوث فترة أطول في الحمام فقد اشتدت علينا قسوة البرد. واتضح لي أني أضحك على نفسي وأمني النفس منى كاذبة، فما أن رأى الحمامي تلك الدريهمات حتى نظر إلينا وظن أنه يواجه مجنونين خطيرين فرا من دار المجانين فقال لنا «اذهبا حتى لا يخرج الناس من الحمام ويلحقون بكما الأذى»، ولم يدعنا ندخل الحمام.

وعلى باب الحمام رآنا طائفة من الصبيان فظنونا من المجانين فشرعوا يقذفوننا بالحجارة ويصيحون علينا، فذهبت وأخي إلى زاوية بعيدة، وأخذنا نفكر في أحوال هذا الفلك الدوّار، وما انتهى إليه أمرنا.

وليت الأمر اقتصر على الحمامي والصبيان إذن لهان الخطب، ولكن هذا المكارى البدوى الذى أجر لنا بعيرين من الأفلاج يلح في مطالبتنا بثلاثين دينارا أجر حمله لنا ولم أجد وسيلة أسدد بها هذا الدين.

ولكن كرم الله واسع فقد كان أحد وزراء ملك الأهواز، يدعى «أبو الفتح علي بن أحمد» وكان رجلا كريما محتشما، وكان أديبا فاضلا، يحب الشعر والأدب وهو رجل ملأت أفضاله وكرمه مدينة البصرة، وقد جاء من الأهواز مصطحبا أهله

وحاشيته، وألقى رحل الإقامة في البصرة. ولم يكن يشغل أى عمل هنا واتفقت لي صحبة وصداقة مع رجل فارسي من الفضلاء، وكان من رجال الوزير «أبي الفتح علي بن أحمد» وكان يتردد عليه كثيرا، وكان هذا الفاضل الفارسي يعيش ضائقة مالية ولم يكن لديه فضل مال ليعينني على نوائب الدهر، فشرح للوزير حالي وحدثه بشأني.

وعندما علم الوزير «أبو الفتح على بن أحمد» بسوء حالي، أرسل إلى فارسا من فرسانه طالبا مني المجيء فورا.

فخجلت من حالي وما أنا عليه من الفاقة وسوء المنظر ولم أذهب إلى الوزير بل بعثت له خطابا رقيقا أشكر له حسن كرمه وجليل دعوته لي. واعتذرت عن الذهاب على أمل التشرف بزيارته في فرصة أخرى، وكان غرضي من الخطاب أمرين:

الأول: أني لا أجد ما يناسب رجلا ذا مروءة مثلي من الثياب لمقابلة وزير فاضل.

ثانيا: رجوت أن يطلع من خلال رقعتي إليه أني رجل من أهل العلم، حتى إذا زرته زال عني بعض ما يمكن أن يعترى الإنسان المحتاج من الخجل عندما يذهب لزيارة من عسى أن يفضل عليه.

وأرسل الوزير في الحال ثلاثين دينارا، فخطت ثوبين جديدين لي ولأخي، وفي اليوم الثالث ذهبنا إلى مجلس الوزير.

وكان رجلا كريما أديبا فاضلا، متواضعا صالحا، يدعى الرئيس أبا عبدالله أحمد بن علي بن أحمد، وكان من الشعراء أورجال الدواوين، شابا حكيما نزيها وأقمنا عند هذا الوزير وفي ضيافته من أول شهر شعبان إلى منتصف شهر رمضان.

ولقد أمر الوزير بإيفاء الأعرابي دينه علينا وهو ثلاثون دينارا، وبذلك خلصنا (جزاه الله خيرا) من ذلك الدين الثقيل. أسأل الله تعالى أن يخلص جميع عباده من ذل الدين وعذاب القرض بحق الحق وأهله.

وعندما علم بمغادرتنا لمدينة البصرة أكرمنا، وأعاننا على السفر بحرا فوصلت إلى فارس بفضل الله وعون هذا الكريم، لا حرم الله الدنيا من الكرماء بمنه.

مشاهد البصرة

في مدينة البصرة ثلاثة عشر مشهدا باسم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويسمى أحد هذه المشاهد بمشهد «بني مازن».

وقصة بناء هذا المشهد هو أن علي بن أبي طالب جاء في سنة خمس وثلاثين من الهجرة النبوية إلى البصرة ووقعت حرب الجمل الشهيرة بينه وبين السيدة عائشه أم المؤمنين رضي الله عنها. وفي هذا العام تزوج علي رضي الله عنه ليلى ابنة مسعود النهشلي، وهذا المشهد هو المكان الذى بنى فيه على زوجته «ليلى» وقد أقام علي رضي الله عنه اثنين وسبعين يوما، عاد بعدها إلى الكوفة ومشهد آخر بجانب المسجد الجامع ويسمى «باب الطيب».

ورأيت في جامع البصرة عمودا خشبيا طوله ثلاثون ذراعا وثخانته خمسة أشبار وأربعة أصابع. وأحد أطراف ذلك العمود أشد ثخانة من الطرف الآخر وهو من الخشب الهندى، يقولون إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هو الذى أحضر ذلك العمود إلى البصرة.

وتقع بقية المشاهد الاثنى عشر في نواح متفرقة من البصرة، وقد زرتها جميعا، وبعد أن صلحت حالنا في البصرة، ولبس كل منا زيا وجيها أنيقا دلفت

وأخي يوما إلى الحمام الذى تحدثت عنه آنفا في هذا الكتاب، وإذا بالحمامي يقف إجلالا لنا، ويقابلنا كل من بالحمام باحترام بالغ، وما إن دخلنا إلى الحمام حتى جاءنا المدلك والقيم وقاما على خدمتنا، فلما فرغنا من لبس ملابسنا، وغادرنا الحمام تشيعنا نظرات الإجلال والإكبار، سمعت الحمامي يقول لرفيق له إن هذين الرجلين جاءا إليّ يوما فلم آذن لهما بالدخول. وكان الحمامي يظن أني وأخي لا نعرف اللغة العربية التي كان يحدث صاحبه بها. فأجبت الحمامي باللغة العربية «نعم لقد صدقت لقد كنا نرتدي ملابس رثة»، فخجل الحمامي واعتذر لنا عما بدر منه معنا، وقد كان بين الحادثتين عشرون يوما فقط.

ولقد ذكرت هذه القصة ليعلم الناس أن الشدة في الحياة لا تدوم، وعلى المرء أن يتحلى بالصبر في مواطن الشدة، وأن لا ييأس من رحمة الله جل جلاله لأنه تعالى رحيم بعباده.

حالة المد والجزر في البصرة وقنواتها

إذا درسنا الحالة الطقسية لبحر عمان لاحظنا أنه خلال أربع وعشرين ساعة يحدث فيه المد مرتين، بحيث ترتفع المياه إلى ارتفاع عشرة أذرع، فإذا انتهت حالة المد عادت المياه إلى وضعها الطبيعي وهو قدر اثني عشر ذراعا.

وفي حالة المد التي ترتفع فيها المياه في بحر عمان إلى عشرة أذرع تتأثر أنهار البصرة بتلك الحالة، فإذا كانت بعض أطراف نهر البصرة تقع في دوامة منخفضة فإن تلك الأطراف لا تتأثر كثيرا بحركتي المد والجزر فتبدو المياه فيها كما لو كانت تجرى في انسياب ناعم رتيب.

أما في الجهات المرتفعة من نهر البصرة فإن ارتفاع المياه في حالة المد البحرى تمتد امتدادا يغطي مساحة أربعين فرسخا من سطح هذا النهر العملاق.

ويقول علماء البحار في دراساتهم لظاهرتي المد والجزر، إنه كلما كانت المياه تجرى في منخفض بحرى بدت المياه أكثر صخبا، وكلما كان السطح عاليا انكسرت حدة الجزر، وبدت المياه كما لو كانت أقل رعونة وصخبا.

ويزعمون أن ظاهرتي المد والجزر ذات علاقة بحركات القمر، فكلما كان القمر في برج الرأس وزحل وهو يكون كذلك عادة في اليوم الرابع والعاشر من كل شهر فعندئذ فإن الماء يكون في حالة مد وانفساح، أما إذا كان القمر مسامتا للأفقين الشرقي والغربي، فإن الماء يكون في حالة جزر وركود.

وثمة نظرية فلكية أخرى تذهب إلى أنه عندما يكون القمر مواجها للشمس، فإن مياه البحار تصاب بحالة من الفوران، وتسمى هذه الحالة فلكيا بالمد، وعندما يكون القمر مسامتا (للتربيعات) فإن الماء يتقلص.

وهذه الأدلة الفلكية التي سقتها جعلت بعض العلماء يجزمون بأن المد والجزر لهما علاقة طردية وعكسية بالدورات القمرية والله تعالى أعلم.

مدينة الأبلة

ومدينة الأبلة تقع على النهر الذي سميت المدينة باسمه، وهي مدينة عامرة زرتها فرأيت بها القصور والأسواق والمساجد والأربطة، وهي قصور وأسواق ومساجد وأربطة كثيرة لا تقع تحت الحصر.

وتقع المدينة في الجانب الشمالي من النهر، وتتركز البيوت والمساجد والأسواق والأربطة في الجانب الجنوبي من النهر، ولقد رأيت في الأبلة متنزهات في مكان يدعى «شق عثمان»، و«الشط الكبير» وهو مجمع المياه الذى كونته أنهار دجلة والفرات والجويز.

وبالبصرة عشرون ناحية، وفي كل ناحية عدد كبير من القرى والمزارع.

محال البصرة

حشان ـ شربة ـ بلاس ـ عقر ـ ميسان ـ المقيم ـ نهر الحرب ـ شط العرب ـ مسعد ـ سام ـ الجعفريه ـ المشان ـ الصمد ـ الجونة ـ الجزيرة ـ العظمي ـ مروت الشرير ـ جزيرة العرض ـ الحميدة ـ جوير ـ المنفردات.

ويقولون إنه كان يوجد في مدخل نهر الأبلة دوامة عظيمة تمنع السفن من الوصول إلى فم النهر ـ فأمرت إحدى نساء البصرة وكانت ذات ثراء عظيم ـ ببناء

مائـة زورق وإغـراقها في تلك الدوامة لسدها وتمكين السفن من الوصول إلى فم نهر الأبلة ، وقد تم ذلك بنجاح .

وفي منتصف شهر شوال سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة خرجنا من البصرة ، وركبنـا زورقـا من مينـاء الأبلة وأبحرنا في نهر الأبلة ، وكان يمتد أمامنا وعن يميننا وشمالنا طائفة من الحدائق والبساتين والعوامات على امتداد أربعة فراسخ ، وكان نهر الأبلة يمد عددا من القنوات والشرايين المائية بالماء والتي تتجه إلى كل ناحية لتغذية الحدائق والبساتين والقصور المنتشرة على شاطئه الساحرى الجميل .

وعندما وصلنا إلى «شق عثمان» نزلنا إلى اليابسة وحطينا الرحال في ناحية تواجـه مدينـة الأبلة . ثم غادرنـا المكان في السابع عشر من الشهر نفسه على ظهر باخـرة كبـيرة تسمى في البصـرة «البوصي» وكان يقف على الشاطيء جمهور كبير من النظـارة يشـايعوننا بالدعاء ويرجون لنا سفرا سعيدا قائلين «يا بوصي سلكك الله تعالى» .

وصلنا إلى مدينة «عبّادان» فنزل الناس من السفينة .

مدينــة عبادان

تقـع مدينـة عبّـادان على شاطيء البحر، على هيئة جزيرة، ويتفرع شط العـرب من «عبّـادان» إلى فرعين، ولا يستطيع المرء الوصول إلى عبّادان إلا عن طريق البحر.

وفي الجهـة الجنـوبيـة من «عبـادان» تتفرع المياه وتكثر حتى إن الماء يصدم جدر سور المـدينـة أوقـات الفيضـانات، فإذا انحسرت المياه في الجزر بعدت عن المدينة قدر فرسخين.

وقـد اشـترى النـاس الذين كانوا على ظهر سفينتنا من «عبادان» شيئا من الحصر التي تشتهر بها المدينة، كما اشترى البعض طعاما.

وفي فجر اليوم التالي غادرت السفينة «عبادان» واتجهنا إلى الطرف الشمالي وكنـا نستقي من ميـاه البحـر حتى مسـافـة عشرة فراسخ من «عبادان» وكان ماؤه عذبا لأنه امتداد لمياه شط العرب العذبة.

وعنـدمـا أشـرقت علينـا الشمس رأينـا شيئـا في الأفق البعيد بدا لنا كطائر صغـير في وسـط البحـر وكلما اقتربنا منه ازداد كبرا. وعندما اقتربنا منه على بعد

فرسخ واحد هاجت رياح البحر، فألقى البحارة الكلاليب في الماء وشرعوا الأشرعة الهوائية. فسألت الناس عن جلية الأمر فعلمت أن هذا النوع من المعبرات البحرية يسمى «الخشاب»، وصفته أنه صندل مائي ضخم من خشب الساج المحكم وهو يشبه المنجنيق، فقاعدته متسعة ورأسه ضيق وفي أعلى الرأس تقع دفة القيادة وترتفع عن القاعدة قدر أربعين ذراعا. وغرفة القيادة مبنية من الآجر والحجارة ومشدودة بالحبال الوثيقة شدا محكما. ويجلس القائد في أعلى الغرفة. ويقولون إن هذه المعبرة ملك لأحد التجار ويزعم البعض أن ملكا من الملوك هو الذي بناها. والفكرة من هذا النوع من المعابر هو أنه يساعد على عبور هذه المواضع البحرية المرتفعة التي لا تستطيع السفن الكبيرة اجتيازها لقربها من سطح البحر مما يعرض السفن للارتطام والغرق. لذلك يصنعون في مثل هذه الأماكن الخطرة منارات تضاء ليلا لتحذير السفن، كما يستفاد من هذه الأماكن لتشديد الرقابة البحرية على السفن المعادية وكذلك سفن القراصنة.

وعندما غادرنا هذا الخشاب انتقلنا إلى ظهر آخر يشبهه إلا أنه لا توجد به غرفة قيادة عالية، وأخيرا وصلنا إلى مدينة «مهروبان».

مدينـة مهروبان

مدينـة عظيمـة على ساحـل البحـر في الجهـة الشـرقيـة، وبهـا سوق كبير ومسجـد عظيم، أمـا ميـاه المدينة فتأتي من الأمطار، فلا وجود للآبار أو القنوات بالمـدينـة. وفي المدينة أحواض كثيرة واسعة فيها مياه الأمطار، ولم يشتكوا قط من قلة المياه.

ورأيت في المدينة ثلاثة فنادق كبيرة، يشبه كل واحد حصنا شديد الإحكام عاليـا، كما رأيت في مسجـد الجمعـة وفي أعلى المنـبر اسم يعقـوب بن الليث الصفارى محفورا في أخشاب المنبر، فسألت أحدهم عن قصة هذا الاسم فقال: إن «يعقوب بن الليث» قد امتـدت فتـوحاته إلى مدينة مهروبان هذه، وإلى هنا توقف ولم يستطع مواصلة فتوحاته.

وكانت المدينة في هذا الوقت الذى زرتها فيه من ممتلكات أبناء أبي كاليجار الـديلمي وهـو حاكم مقـاطعـة فارس، ويجلب الطعـام إلى هذه المدينة من المدن والـولايـات الأخـرى، أمـا المـدينة نفسها فلا يتوفر فيها سوى السمك وهي مركز مراكز جمع الضرائب وبناء السفن.

وإذا خرجت من هذه المدينة واتجهت جنوبا وصلت إلى ناحية تدعى «توه» ومدينة «كازرون».

ولقـد اضطـررنـا للمكـوث في هذه المـدينة لأن الطرق لم تكن آمنة بسبب الفتن والحـروب التي نشبت بين أبنـاء أبي كاليجار. فقد طمع كل واحد منهم في الاستقلال بالحكم، فأصبحت الأوضاع في ولاية فارس على غاية التشويش والاضطراب.

وعلمت أن في محلة «باراغان» شيخا فاضلا يدعى الشيخ «سديد محمد بن عبدالملك» فكتبت له رقعة وشرحت له فيها حالي، والتمست منه العون في أن يجد لي طريقـا للخـروج من مدينـة «مهـروبان» التي مللت الإقامة فيها، وأن يوصلني إلى مكان آخر أكثر أمنا.

وفي ثالث يوم من إرسـال خطـابي إلى الشيخ جاءني وفد مكون من ثلاثين شخصا وكلهم مسلح وقد جاؤا سيرا على الأقدام وأخبروني أن الشيخ أرسلهم حتى يصحبوني إلى حضرته في «باراغان».

مدينــة أرجـــان

أرجـان مدينـة كبـيرة، وسكـانها في حدود عشرين ألف نسمة، وفي الجهة الشـرقيـة من المدينة نهر مائي ينبع من الجبال. وفي الناحية الشمالية من ذلك النهر ثلاث قنـوات عظيمـة متفـرعـة من النهـر، وتمـد هذه القنوات مدينة أرجان بالماء الـلازم، وبلغني أنهم صرفـوا أموالا كثيرة في شق هذه القنوات، وقد حولت هذه القنـوات المـدينة إلى مزارع وبساتين يانعة فيها النخل والنارنج والأترنج والزيتون ويوجد في أسفل المدينة من أنواع العمارات مثل ما يوجد على ظهرها. وفي فصل الصيف ينزل الناس الى البيوت السفلية اتقاء للحر الشديد.

ورأيت في المدينة كثيرا من الملل والنحل الإسلامية الشائعة جنبا إلى جنب وكان للمعتزلة في المدينة شيخ يدعى «سعيد البصرى» وكان شيخا فصيحا متكلما وله اطلاع على علوم الهندسة والحساب، شديد الادعاء في التمكن منهما، ولقد وقعت بيني وبين ذلك الشيخ مناظرات ومجادلات، فقلت له وسمعت منه في علم الكلام والحساب وغيرهما.

وفي أول محرّم سنة أربع وأربعين وأربعمائة غادرت مدينة «أرّجان» وذهبت إلى أصفهـان عن طريق جبـلي، وخلال سيرنا في الطريق الجبلي وصلنا إلى جبل وفي سفحه واد ضيق، يزعم العامة أن «بهرام كور» هو الذى قدّ ذلك الجبل بسيفه

وأحدث ذلك الوادى الضيق، ورأيت في ذلك الوادى عين ماء عظيمة تنحدر من الجبل وتنبع من فتحة كبيرة في أعلى الجبل، ويزعم العامة أن هذا الماء يظل ينبع من تلك الفتحة طوال فصل الصيف، فإذا كان الشتاء توقف وتحول إلى قطعة من الثلج.

وصلنا إلى مدينة «لوردغان» التي تبعد أربعين فرسخا عن «أرجان» وتعتبر مدينة «لوردغان» أول حدود ولاية فارس.

ومن هناك وصلنا إلى مدينة «خان لنجان» وقرأت اسم السلطان طغرل بيك على بوابة المدينة، وأهل هذه المدينة يعيشون في هدوء وأمان، وكل شخص مشغول بعمله.

وفي الثامن من شهر صفر سنة أربع وأربعين وأربعمائة وصلنا إلى مدينة «أصفهان» والمسافة بين البصرة وأصفهان مائة وثمانون فرسخا.

وأصفهان مدينة تقع في أرض منخفضة، وماؤها وهواؤها غاية في العذوبة والاعتدال. وإذا حفر المرء عشرة أذرع في أى مكان من أرض المدينة فاض الماء العذب البارد. وعلى المدينة سور حصين عال مجهز بوسائل الدفاع عن المدينة من الآلات والمراقب.

وتكثر في المدينة قنوات الماء الجارى، كما تزدان المدينة بمبانيها الجميلة العالية. ومسجد الجمعة في قلب المدينة، وهو مسجد كبير ورائع.

ومحيط سور مدينة أصفهان قدر ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ. وداخل المدينة على درجة كبيرة من العمران، ولا أثر للخراب أو الهدم فيها، وأسواقها

كثيرة ورائجة ورأيت سوقا للصرافين عددهم مائتي صراف، ولكل صنف من البضائع سوقه الخاص به وعليه بوابة.

وعلى كل حارة وزقاق باب خاص يحكم غلقه في حالات الطوارىء، ورأيت في أصفهان فنادق نظيفة، ففي إحدى الحارات وتدعى «حارة طراز» رأيت في أحد ازقتها قدر خمسين فندقا. وفي كل فندق عدد من المحلات التجارية، والمسؤولون عن تأجير تلك الفنادق ينتشرون في الزقاق، لقد ضمنت وفرة الفنادق بالمدينة لأن القافلة التي قدمنا معها إلى أصفهان كانت تتكون من ألف وثلاثمائة حمولة، وكلها نزل بالمدينة ولم يشك إنسان من قلة الفنادق أو ندرة العلائف.

وعندما احتل السلطان طغرل بيك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق رحمة الله عليه شهر أصفهان عين عليها شابا من أهل نيسابور من رجال الديوان صاحب خط مليح، وكان شابا وقورا حلو اللقاء واسمه «خواجة عميد» وكان محبا للفضل فصيحا كريما.

وقد أمره السلطان السلجوقي ألا يأخذ من الناس شيئا لمدة ثلاثة أعوام وقد سار هذا الوزير الجليل على ذلك المرسوم السلطاني، فعاد المشردون إلى وطنهم. وهذا الوزير من أهل الشورى والتدبير.

وقبل وصولنا إلى أصفهان تعرّضت المدينة للقحط الشديد، ولكن عندما دخلناها كان المزارعون يحصدون زروعهم. وكان ثمن المن ونصف المن من خبز القمح بدرهم واحد. وكذلك سعر الثلاثة أمنان من خبز الشعير، ويقول الناس إن سعر الثمانية أمنان من الخبز لم تبع بأقل من درهم واحد قط. ولم أر في كل الأرض التي تتكلم الفارسية مكانا أملح ولا أجمع، ولا أكثر عمارة من مدينة

أصفهان، ويقولون إن القمح والشعير وغيرهما من الحبوب لو خزنت عشرين عاما في أصفهان، فلا يصيبها التلف أو الفساد أو التغير.

كما يزعمون أن هواء المدينة قبل بناء السور كان أطيب. وعندما بنى السور تغير هواؤها حتى تعرضت بعض غلاتها للتلف، أما هواء ريف أصفهان فما زال على جودته ونقائه.

وعندما علمت أن القوافل لا تغادر أصفهان إلا في وقت متأخر فقد مكثت بها عشرين يوما.

وفي الثامن والعشرين من شهر صفر خرجت من أصفهان، ووصلت إلى قرية تدعى «هيثم آباد» ومن هذه القرية وخلال صحراء وجبال «مسكيان» وصلنا إلى قصبة «نائين» ومن أصفهان إلى هنا ثلاثون فرسخا.

وعلى بعد ثلاثة وأربعين فرسخا من قصبة «نائين» وصلنا إلى قرية «كرمه» وتقع القرية في حافة الصحراء، وتوجد في هذه الناحية مجموعة من القرى قريبا من اثنتي عشرة قرية. والموضع ذو طقس حار تكثر به أشجار النخل وكانت هذه الناحية تتبع لأسرة «كوفجان» ولكنها الآن من أملاك الأمير «الكيكلي» الذى سلخها من أسرة «كوفجان». وللأمير نائب من قبله في تلك الناحية، يقيم في قرية تدعى «بيادة» ولها سور حصين، وقد أشاع هذا النائب الأمن في جميع الناحية، فإذا ثار بعض آل «كوفجان» أرسل الأمير إلى نائبه قوة لتأديبهم وسجنهم وربما قتلهم، ومصادرة أموالهم في كل حين.

وبفضل هذا النائب فإن الأمن مستقر في هذه الناحية الصحراوية، ولا يتعرض أحد بسوء أو أذى. أعان الله ونصر جميع الملوك العادلين ورحم الماضين

منهم إلى جوار رحمته.

وفي هذا الطـريق الصحـراوي منازل وأحواض تجمع بها مياه الأمطار على بعـد كل فرسخـين ليسـتريح المسافرون في هذه المنازل، ويرتوون من هذه المياه، وهـذه المنـازل بمثـابـة صوى في الطـريق حتى لا يتيـه المسافرون في هذه الطريق الصحـراويـة المـوحشـة ولـولاهـا لضل كثير من المسافرين وربما ابتلعتهم الرمال الغزيرة المتحركة المبثوثة في الطريق.

وبعـد أن عبرنـا تلك المغارة وصلنا إلى أرض سبخة، مليئة بنتوءات بارزة هشة تسوخ فيها الأقدام، وهي على امتداد ستة فراسخ على هذه الهيئة فلو سار المرء من غير دليل فربما ابتلعته الأرض المالحة الهشة اللزجة، وقادتنا تلك السبخة إلى طريق يعـرف بطـريق «ربـاط زبيـدة» ويعـرف أيضا «برباط مرامي»، وعلى الـربـاط خمس آبـار، ولـولا الـربـاط وتلك الآبار فإن أحدا لا يستطيع عبور تلك المغارة التي خضناها.

وبعد أربعة عشر فرسخا وصلنا إلى قرية تابعة لمدينة «طبس» واسم القرية «رستاباد» وفي التاسع من شهر ربيع الأول وصلنا إلى مدينة «طبس» ذاتها، ومن أصفهان إلى طبس مائة وعشرة فراسخ كما يقولون.

مدينــة طبــس

مدينة طبس كبيرة وإن كانت أشبه بقرية منها بالمدينة، والمياه فيها شحيحة والزراعة فقيرة، وأغلبها أشجار النخيل وبعض البساتين.

فإذا اتجهت إلى النـاحيـة الشمالية على مسافة أربعين فرسخا وصلت إلى مدينـة «نيسـابور» وإذا اتجهت شمالا وصلت إلى مدينة «خبيص»، والطريق إلى «خبيص» يمر عبر الصحراء وطوله أربعون فرسخا.

وفي الناحية الشرقية من طبس تمتد سلسلة من الجبال. وتتبع المدينة حكم الكيكـلي بن محمـد، وقـد أخـذهـا قهرا. والحالة الأمنية فيها مستقرة، حتى إنهم يزعمون أن الناس في المدينة لا يقفلون أبوابهم ليلا.

ويترك الناس بغالهم في أزقة المدينة دون أن يخشوا سطوة اللصوص مع أن المدينة غير محصنة ولا تستطيع المرأة في المدينة أن تحادث رجلا غريبا. وإذا حدث ذلك فإن الرجل والمرأة كلاهما يقتلان، ولا أثر للسرقة والشغب في المدينة.

ولقـد شاهـدت خلال رحلتي هذه أربعـة أماكن يضرب بها المثل في شيوع العـدل في أرض العـرب والعجم. أمـا الموضع الأول فهو بناحية «دشت» في زمن

حكم لشكرخان. والثاني: في الديلم في زمان «أمير الأمراء جستان بن إبراهيم»، والثالث: مصر في أيام المستنصر بالله أمير المؤمنين. والرابع: في طبس في أيام الأمير أبي الحسن الكيكلي بن محمد.

فخلال جولاتي لم أر ولم أسمع آمن من هذه المواضع الأربعة خلال حكم الأشخاص الذين ذكرتهم.

ولقد كنا في ضيافة أمير طبس سبعة عشر يوما، وعندما أزمعنا الرحيل وصلنا صلات جيدة. واعتذر عما يكون قد بدر من تقصير غير مقصود. أسأل الله تعالى أن يكرمه ويرضى عنه.

ولقد بعث معي الأمير مرافقا خاصا اصطحبني إلى مدينة «زوزن» التي تبعد اثنين وسبعين فرسخا عن طبس.

وعندما سرنا على بعد اثني عشر فرسخا من طبس وصلنا إلى قصبة تدعى «السرقة» بها مياه جارية وزروع وحدائق. وكانت الأشجار مثمرة عندما دخلنا إلى تلك القصبة، وفي القصبة مسجد جمعة وقرى طيبة يانعة الثمار.

وفي التاسع من ربيع الآخر غادرنا «السرقة» وفي الثاني عشر من نفس الشهر وصلنا إلى مدينة «تون» وبينها وبين السرقة عشرون فرسخا.

ويقولون إن المدينة كانت كبيرة واسعة العمران، أما حينما زرتها، فقد وجدت أغلبها خرابا، وهي تقع في حافة الصحراء. وبها مياه جارية وقنوات كثيرة وفي جهتها الشرقية كثير من الحدائق، ولها سور محكم البنيان، ويقولون إنه كان بالمدينة أربعمائة منسج لصناعة السجاد، وفي المدينة كثير من أشجار الفستق

تتدلى من أسوار المنازل، بينما سمعت بعض الناس في «بلخ» و «تخارستان» يزعمون أن الفستق لا ينبت إلا في أعلى الجبال.

وعندما غادرنا مدينة «تون» قص عليّ رفيقي الكيكلي قصة مفادها «أنه عندما كان في طريقه يوما من مدينة «تون» إلى مدينة «كنابد» قطع اللصوص عليهم الطريق وغلبوهم، فألقى بعض أفراد القافلة نفسه في قعر إحدى القنوات خوفا، فجاء والد ذلك الشخص المختبيء في قعر القناة. وكان والدا رحيما مشفقا، واستأجر أحد الغواصين لإخراج ابنه من القناة، فجاؤوا بحبال طويلة كثيرة استغرقت كل ما كان مع القافلة من الحبال، واجتمع خلق كثير في فوهة البئر، وكان مقدار ما أدلى إلى البئر من الحبال سبعمائة ذراع، حتى استطاع الغواص الوصول إلى قاع البئر، وانتشل الغريق الذى كان قد فارق الحياة وقال ذلك الغواص إن في هذه القناة ماء غزيرا، وتمتد هذه القناة على عمق أربعة فراسخ، ويزعمون أن كسرى «كي خسرو» هو الذى أمر بحفر هذه القناة العميقة.

وفي الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر وصلنا إلى مدينة «قاين» وبينها وبين مدينة تون سبعة عشر فرسخا، وتقطع القافلة المسافة على قلتها في خلال أربعة أيام لأن الطريق وعر.



مدينــة قايــن

قاين مدينـة كبـيرة حصينـة. يحيـط بها خندق عظيم، ومسجد الجمعة في قلب المـدينـة. وفي مقصـورة المسجـد إيـوان عظيم لم أر أكـبر منه في جميع أنحاء خراسان والإيوان لا يتناسب مع حجم المسجد. وتمتاز منازل المدينة بأنه توجد قبة في أعلى كل منزل.

وإذا غادرت قاين واتجهت إلى النـاحيـة الشـمالية الشرقية منها وصلت إلى مدينـة «زوزن» على بعـد سبعـة عشر فرسخا. وإلى الجنوب من قاين تقع مدينة «هرات» على بعد ثلاثين فرسخا.



محـــاورة علميـــة

وقـابلت في مدينـة «قاين» رجلا يدعى «أبو منصور محمد بن دوست» وكان ملما من كل علم بطـرف كالطب والفلك والمنطق، فتبـاحثنـا ببعض قضايا العلم فسألني: «مـا تقـول عن الكائنات خارج هذه الأفلاك والأنجم، هل يوجد شيء؟» فأجبت: «إن لفـظ الشيئيـة يطلق على ما هو كائن خارج الأفـلاك والأنجم وهي مسميـات تطـابق الأسـماء التي نراهـا في الكـائنـات المنظـورة المعلومة لنا».
فسألني «ماذا تسمى الكـائنـات التي خارج هذه الكـواكب، هل لها معنى أم أنها غير ذات معنى؟» أجبت: «لا حيلة للعقـل في الاعـتراف بأنـه ذات معنى، لأن العالم محدود، وحدّه الأعلى هو فلك الأفلاك، وتعريف الحد كما يقول المناطقة، هو الجـزء المفصـول عن أصله، فإذا سلمنـا بهذا علم أن داخـل الأفلاك معاني، لكنها ليست كتلك المعاني التي في خارج الأفلاك».

فقـال: «إذن ما يدركـه العقل الإنساني يعني أنه شيء ذو نهاية محددة، لأنه إذا كان غير ذلك فهو لا متناهي واللامتناهي لا يخضع للفناء».

وتبادلنا هذا النوع من أبواب الفلسفة العليا، فقال: لقد احترت كثيرا في حل هذه القضايا، فقلت لا تحتر.

وقد اضطررت للمكوث في قاين لمدة شهر بسبب الاضطراب الذى حدث في زوزن من مماليــك النيسـابـورى، وتمـرد حاكم زوزن، وفي قاين هذه صرفت المرافق الذى أرسله معي أمير طبس أبو الحسن كيكلي بن محمد شاكرا حسن صحبته.

وخــرجنـا من مدينـة قاين، في الثـاني من جمادى الآخـرة ووجهتنـا مدينـة «سرخس» والمسافة بين البصرة وسرخس ثلاثمائة وتسعون فرسخا وفق حساباتي.

وغادرت سرخس فمررت في طريقي بثلاثة أربطة هي : الرباط الجعفرى، والـربـاط العمـروى وربـاط نعمتي، وهي أربطـة ثلاثة متقاربة، وفي اليوم الثاني عشر من شهر جمادى الآخرة وصلنا إلى مدينة «مرو الرود».

بعـد يومـين غادرنـا «مـرو الـرود» ووصلنا إلى مدينة «بارياب» عبر طريق «آب كرم» وكان ذلك في التاسع عشر من شهر جمادى الآخرة، وتبعد بارياب عن «مرو الرود» مسافة ثلاثين فرسخا.

كان أمير خراسان عندما عدت جغري بيك أبو سليمان داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكان بمدينة «شبورغان» في طريق عودته إلى «مرو الرود» دار ملكه.

وحيث أن الطـريق لم تكن آمنـة فقـد سلكنـا طريق «سنكلان» ومن هناك وعبر طريق «الوديان الثلاثة» اتجهنا إلى «بلخ».

وبينما كنا نسير في طريق «الوديان الثلاثة» بلغنا أن أخي الخواجة أبا الفتح عبد الجليل يعمل ضمن حاشية السلطان السلجوقي، يلقبونه «أبو النصر».

ولقد مضت سبعة أعوام منذ غادرت خراسان ولم التق بأخي طوال هذه المدة.

وعندما وصلنا مدينة «دسكترد» رأيت أحمالا تتجه إلى «شبورقان» فسأل أخي أحد المرافقين لها: يا ترى أحمال من تكون هذه؟ فقالوا: إنها ملك الوزير الأعظم، فسألهم هل تعرفون شخصا يسمى أبا الفتح عبد الجليل، فإن معنا أحد أقاربه؟ وفي الحال جاء إلينا أحد المرافقين للأحمال وسأل: من أين قدمتم؟ فأجبنا من الحج، فقال: إن سيدى أبا الفتح عبد الجليل دائم السؤال عن أخوين له خرجا للحج منذ عدة أعوام ولم يعودا، وهو في شوق دائم إليهما ولم يحصل على خبرهما من أحد إلى اليوم . . .

فقال أخي: لقد أحضرنا معنا رسالة من ناصر، فإذا جاء سيدك أعطيناها له، وبعد قليل توقفت القافلة للاستراحة، فنزلت وأخي لنأخذ قسطنا من الراحة. فقال ذلك الخادم: سوف يصل سيدي بعد قليل، فإذا لم يجدكما فسوف يحزن حزنا شديدا، فلو أعطيتماني الرسالة لأسلمها له فسيفرح بذلك فرحا شديدا.

فقال له أخي: هل تريد رسالة ناصر أم ناصر نفسه، هذا الواقف أمامك هو ناصر بعينه، فسر ذلك الخادم سرورا بليغا، حتى احتار ماذا يصنع.

ثم واصلت القافلة سيرها نحو «بلخ» وكان أخي قد سلك طريقا آخر عبر الصحراء إلى مدينة «دسكترد» وسار في ركاب الوزير الأعظم، في طريقهم إلى خراسان للانضمام للسلطان ولما علم بمكاننا عاد من دسكترد وظل ينتظر على رأس جسر جمركيان.

وفي يوم السبت السادس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وأربعمائة التقينا بأخي بعد أن كنّا قد قطعنا كل أمل في لقياه بل في البقاء على قيد الحياة بعد ما تعرضنا له من الأهوال خلال رحلتنا الطويلة الشاقة هذه،

ولقد حمدنا الله تعالى كثيرا على أن يسر لنا اجتماع الشمل مرة ثانية بعد أن ظننا أن لا تلاقيا وسررنا سرورا لا يمكن وصفه بهذا اللقاء العائلي الجميل، وعندما وصلنا ثلاثتنا إلى مدينة «بلخ» قلت هذه الأبيات الشعرية الثلاثة حسب الحال:

إن تعب الحياة وعنائها وإن طالا
وخالطهما الخير والشر فلا بد أن يزولا
إن الفلك الدوار يواصل مسيرته ليلا
ونهارا والليل والنهار يتعاقبان
لقد أنهينا اليوم سفرا عرفنا نهايته فأنّى
لنا معرفة السفر المجهول الذى ينتظر كل مخلوق

والمسافة التي قطعنا في رحلتنا هذه منذ أن غادرنا «بلخ» منذ سبعة أعوام إلى أن دخلنا مصر ثم ذهبنا للحج وعدنا عن طريق البصرة هي ألفان ومائتان وعشرون فرسخا، لم أدخل فيها المسافات القصيرة التي زرت فيها بعض الأماكن خلال رحلتنا.

وهذا الذى تقرأه في رحلتي هذه هو ما رأيته وشرحته بصدق وتجرد، وبعضه قصّه الناس عليّ، فإذا بدا في هذه المذكرات شيء من القصور فعلى القراء أن يعذروا شخصي الضعيف، وألا يبالغوا في المؤاخذة ويسرفوا في اللوم.

وإذا قدر لي يوما أن أشرق كما غربت فسوف أضيف مشاهداتي هناك إلى هذه المذكرات إن شاء الله تعالى وهو وحده العزيز والحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله وأصحابه أجمعين.

***